

منشوراتنا القصصية

١ التجاريب
٢ الصحائف السُود
٣ يا بياع السمسمية
٤ ابو الخيمة الزرقاء
٥ حدّثني يا أبي
٦ أسرى الغابة
٧ ملح ودموع
٨ يوم عاد أبي
٩ صندوق أم محفوظ
١٠ جدّتي
١١ عنب تشرين
١٢ عازفة الكمان
١٣ وكان مازن ينادي
١٤ كانت هناك امرأة
١٥ يوم غضبت صور
١٦ بابا مبروك
١٧ الأنامل السحرية
١٨ المغني الكبير
١٩ جلجامش
٢٠ نور النهار
٢١ النسر الكريم
٢٢ رنين الخناجر
٢٣ النجمتان
٢٤ أين العروس
٢٥ جزيرة الوهم
٢٦ الغرفة السرية
٢٧ النار الخفيّة
٢٨ الحاج بحبح
٢٩ جوهرة الجواهر
٣٠ دهليز الغرائب
٣١ كوب من العصير
٣٢ المنجّم عصفور
٣٣ مغامرات أوليس
٣٤ وطلع الصباح
٣٥ أسطورة البحر
٣٦ الشريط المخملي
٣٧ سمايا
٣٨ الشكبون
٣٩ الحب والربيع
٤٠ غرباء
٤١ خاتم لبَّيك
٤٢ وزّة الريش الذّهب
٤٣ من أجل عينيها
٤٤ نهرنا الصغير
٤٥ الآبار المسحورة

سلسلة من حكايات بيدبا :

٤٦ عين القمر
٤٧ فيروزنده
٤٨ الطائر والبحر
٤٩ وضحكت الأشجار
٥٠ عرفان المخلص
٥١ لولاك يا مرمر

طَبعَة جَديدَة مُنقّحَة مُصَوّرَة مُلوّنَة

روز غريّب

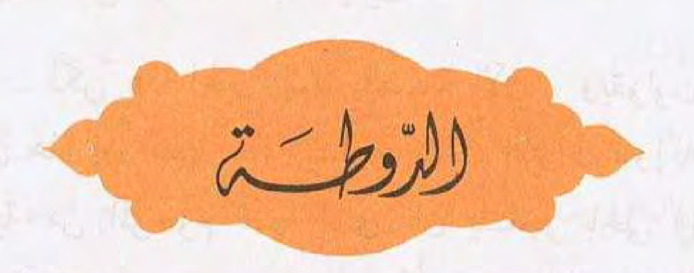
صُندوق «أُمّ محفوظ»

أقاصِيص وحكايات

بيت الحكمة
بيروت

الغلاف والرسوم بريشة « رضوان الشهّال »

الطبعة السابعة، بيروت ـ لبنان، تشرين الأول (أوكتوبر) ١٩٩٢



سرعان ما انتشر في القرية خبرُ رجوع « سميّة » بنت « أسعد ضاهر » من « الإسكندريّة » بعد غياب طويل، فهبط على النسوة هبوطَ الغَيث على الأرض اليابسة. وهنالك، على السطح الملاصق لبيت « أمّ الياس »، حيث يجلسن جلساتٍ تطول ساعات، ويدخِّنَّ النارجيلة من غير ملل، ويتبادلن الحكايات التي لا نهاية لها، كانت سيّدة البيت وزميلاتها يتحدّثن عن هذا الرجوع، وقد ظهرت على وجوههنّ دلائلُ الحِدّة :

ـ خمس مئة ليرة ذهباً يا « أمّ الياس ». خمس مئة ليرة ذهباً مع « سميّة » ! هذا ما عرفته ليلة وصولها لأنّي كنت هنالك في السهرة. وبقيت أبحث وأطلع

وأنزل حتى عرفت الخبر اليقين .

ـ لكنّ هذا الخبر يملأ الضيعة الآن . ويقولون فوق هذا إنّ معها خاتماً يساوي مئات الليرات ، وإنّه هديّة من المرحوم عمّها الذي كان يتاجر بالحلى في « مصر » .

ـ مسكين ! كان بالحقيقة رجلاً آدمياً . وهل هذا المال كلّه من عمّها ؟

ـ لا يا حبيبتي ، قالت « أمُّ الياس » بشيء من الانتفاخ ، وبلهجة من يُحسِن اكتشاف الأسرار ... تعرفين أنّ عمّها « بطرس » استقدمها إلى « الإسكندريّة » وكانت في نحو الخامسةَ عشرةَ من العمر، يتيمة الأب، تعيش في بيت « يوسف عدوان » ـ زوج أمّها ـ كالخادمة . وعمُّها كان بلا أولاد ، وزوجته « بنت حلال »، فعلّمها في أحسن المدارس ، ثم أتقنت فنّ التمريض ومارسته أكثر من خمس سنوات موظّفةً عند الحكومة في أكبر المستشفيات ، وَ.. و..

ـ ولماذا رَجعت إلى هنا ؟ سألت « أمّ انيس » بلهفة .

ـ لأنّ عمّها توفّي ـ أعطاكنّ عمره ـ ولم ترغب في البقاء مع أرملته التي أرادت السكن مع أهلها المقيمين هناك . بعد أن ترك لها زوجها كلّ ثروته...

ـ خمس مئة ليرة ذهباً ... ردّدت إحداهنّ ؛ دوطة [1] مهمّة . ولكن ما الفائدة ؟ فالبنت قد جاوزت السِنّ ...

ـ لا ! لا ! لا تغلطي ، صاحت « أمّ أنيس » مقاطعة . إنّها لم تجاوز السادسة والعشرين .

وصادَقت على قولها الستّ « نهاد » (ويسمّونها الستّ لأنّها من أسرة مشايخ) . قالت :

ـ نعم ، إنّي أذكر أنّ « سميّة » وُلدت في الأسبوع الذي توفّيت فيه حماتي رحمها الله ، أي قبل ولادة بنتي

١ ـ ألدوطة ، أو البائنة : ما يكون مع العروس من مال وجهاز حين زفافها .

« جانيت » بشهر ، بنتي « جانيت » التي زوّجتها من غير شرّ منذ ستّ سنوات .

ـ خمس مئة ليرة ذهباً ! يا سعادة من يأخذها ، قالت « منتهى ». لكنّي سمعتُ خبراً آخر . قالت ذلك بلهجة من يحاول التكتّم فيخونه لسانه .

ـ ماذا سمعتِ ؟ صرخت النسوة بصوت واحد .

ـ سمعت أنّ « بهيج » ابن البيك ينوي خطبتها . وهذا من يقف قدّامه ؟

ـ نعم ، ردّدتِ الجالسات وقد خفضن أصواتهنّ . من يقف قدّامه ؟

★

رأت « سميّة » أنّها موضوع حفاوة واهتمام منذ ليلة وصولها . فهي لا ترى سوى عيون ترمقها وتحدّق إلى وجهها وثيابها . شتّان بين حالتها الآن وما كانت فيه قبل عشر سنوات ، يوم كانت تسير غادية رائحة بثوب واحد لا تبدّله بسواه ، يوم كانت

تقوم بجميع أشغال البيت بعد رجوعها من مدرسة القرية ، بينما أمّها تشتغل بالإبرة لتكسب بعض المال ، وزوج أمّها يعود من تفقّد أرضه التي لا تُنتج شيئاً في زعمه ، فيجلس تحت العريشة أمام البيت ويغنّي أغاني قديمة يلحّنها على طريقته لحناً واحداً لا يتغيّر ، وأختها « سامية » تطعم الدجاجات ، وأخواها « كميل » و « رئيف » يلعبان في الخارج ، وإذا تضاربا وبكى أحدهما صاحت الأمّ :

ـ « سميّة » ، يقصف عمرك ، إنتبهي لإخوتك !

هذه الأمّ التي كانت تشتغل بإبرتها منذ زواجها الأوّل ، ما تزال تشتغل بها الآن وقد جاوزت منتصف العمر . هذه الأمّ التي ترعاها الآن بعطف جديد كانت تنظر إليها منذ عشر سنوات كحمل ثقيل . فقد مات والدها شابّاً ولم يترك لها سوى مال في ذمّة الناس . فعاشت عند أختها « أمّ شفيق » إلى أن اقترنت بهذا الرجل الذي يملك بيتاً وقطعة أرض ، ورُزقت منه بنتاً وصبيّين .

وعاشت « سميّة » في بيت زوج أمّها غريبة لا يلتفت إليها أحد ، حتى أمّها . فشبّت فتاةً حييّة قليلة الكلام لا تجذبها زينةٌ أو هندام ؛ لكنّها تحلم ، وهي في العاشرة ، بمستقبل باهر . وكان الشعر الطويل في رأيها الساذج أهمّ علامات الجمال ، فكانت تتخيّل نفسها في المستقبل البعيد فتاة رشيقة القدّ ، صبيحة الوجه ، تسير في الطريق وقد انسدل شعرها الطويل على كتفيها وظهرها حتى لامس الأرض ، والناس حولها دَهِشون ، يُشيرون بالأيدي ويشخصون بالأبصار .

وكانت تعرف أنّ لها في « الإسكندريّة » عمًّا قد جمع بعض الثروة ، لكنّه لا يعرفها ولا يهتمّ لأمرها . وخطر لها يوماً أن تكتب إليه ، وشاءت الأقدار أن يستقدمها مع أسرة مصريّة كانت مصطافة في « لبنان » . وكان أن مرّت هذه السنوات العشر كلمح البصر . ولكنْ ، أيّ أثر تركته في نفس « سميّة » ؟ أيّ أثر تركته في وجهها ؟ ونظرت إلى

المرآة ، فأطلّ عليها وجه مستدير ممتلىء الخدّين ، ذو سمرة تضرب إلى الاحمرار . ورأت عينيها الحالمتين كأنّهما في إغفاءة وذهول ، لكنّ السنوات العشر قد أضافت إليهما نوراً جديداً .

وإذا بها تسمع وقع خطوات . وإذا بوالدتها تدنو منها وعلى فمها ابتسامة ، ووجهها يفيض حنوّاً ... وتمدُّ يدها إلى كتف الفتاة تحاول ملاطفتها . فابتعدت عنها هذه بحركة عصبيّة أخفت ما شعرَت به من نفور .

ما هذا العطف الجديد الذي يبذلونه لها ؟ ولماذا لم يفعلوا ذلك حين كانت طفلة وبحاجة إلى العطف ؟ آه ! لماذا لا يتركونها وشانها ؟ ذلك خير من هذا الملق المزعج .

ـ « سميّة »، بنتي ، قالت الأمّ . ماذا تقولين ؟ لقد أرسل « بهيج » ابن البيك يخطبكِ ، وأنت تعلمين أنّه زينة الشبّان هنا ، وأنّ أهله ذوو مال وجاه وأرزاق واسعة . أمّا أنا وعمّك فلا نبغي سوى

رضاهم . ولكن لا بأس من عَرْض الأمر عليك ، ولا أظنّك تتردّدين في القبول يا ابنتي ...

وسكتت « أمّ سُمَيَّة » برهةً تمثّلت فيها بنتَها وقد أحاط بها الخدم في بيت البيك ، وهي ـ أُمُّها ـ تمشي بين الناس شامخة الرأس ، فترمقها باقي النساء بعين الحسد ، فتاهت على فمها ابتسامةٌ ظافرة . لكنّ « سميّة » أبطأت في الجواب ، فارتفع صوت الأمّ بإلحاح :

ـ ماذا تقولين ؟

ـ ماذا أقول ؟ دعيني أفكّر .

ـ تفكّرين ؟ آه يا بنتي ، هذا نصيب تتمنّى مثلَه كلُّ بنت في البلدة ، ولكن أين تجد مثله ؟ لقد رُزقتِ المال والجاه ، فلا تجحدي النعمة ولا تتردَّدي ...

وضاقت « سميّة » ذرعاً بهذا الكلام ، فقالت :

ـ بحقّكِ يا أمّاه ! دعيني وشاني الآن . ما رأيكِ لو تحادثنا في هذا الموضوع غداً بدل اليوم ؟

وانصرفت الأمّ بعد لأيٍ وهي تتمتم :

ـ ألله يهديكِ . الله يهديك .

★

كان الليل قد أرخى سدوله ، واستغرق أهل المنزل في النوم ، حين جلست « سميّة » بجانب النافذة وعيناها تأبيان الرقاد . لقد كانت تظنّ أنّها لن تعود إلى هذا المكان . وها هي قد عادت . لماذا ؟ هل جاءت تطلب الراحة أم الزوج ؟ قبل بضعِ سنوات كان الزواج حلماً يملأ حياتها ، لكنّها شُغِلت بالعمل فاحتلَّ هذا الحلم زاوية ضيّقة من نفسها . بالأمس كان صدرها يخفق لكلّ فتى مفتول الساعد . أمّا الآن ...

واستعرضت صوَر رفيقات لها عرفتهنّ قبل سفرها . فتيات مشين كالنعاج إلى حيث قذفت بهنّ يدُ الأهل والحظّ . « نهى » التي زُفَّت وهي في السادسة عشرة إلى رجل كبير السنّ . و « نجلا » التي اقترنت برجل أمّيّ جاهل لا يرضي طموحها .

و « جميلة » التي تعيش عيشةَ الكدر لأنّها لم تُرزق ولداً ... « وأسماء » ... لماذا يؤثّر في نفسها ذكر هذه الفتاة؟ لقد كانت صورة حيّة للجمال الهادىء، وكان على وجهها ابتسامة ملائكيّة. وقد ذهبت إلى الدير لأنّ أسرتها فقيرة، كثيرة العدد، فأرادت تخفيف الحمل عن والدها ... مثلها كثيرات ذهبن إلى الدير، لكنّ واحدة منهنّ لم تؤثّر في نفسها نظيرَ « أسماء ».

و « بهيج » هذا ... ماذا يكون؟ إنّها لا تعرف عنه سوى أنّه « ابن البيك » ووجيه القرية. ولكن بلى. تعرف الشيء الكثير : تعرف أنّ أباه جمع ثروته من مال الفقراء الذين كان يَستَرهن أراضيهم ثم يبتاعها بأبخس الأثمان؛ وتعرف أنّهم قوم يحتكرون الأموال ولا يجودون بالفلس؛ وتذكر أنّها، عندما كانت فتاة صغيرة، مرّت يوماً قرب بيت البيك مع أخيها « كميل »، فرماه ابن البيك الأصغر بحصاة أصابت رجله، فردّها إليه « كميل »، وأصابت كتفه، فصرخ صراخ المجانين؛ وإذا « ببهيج » هذا – وكان

فتى في الرابعة عشرة – يهجم على « كميل » ويضربه على وجهه حتى يسيل الدم من فمه. هي تذكر هذا ولا تنساه.

واستوت « سميّة » على فراشها. وكان الليل قد مضى إلاّ أقلّه، فالقت على كتفيها رداء وخرجت إلى السطح الذي بجانب الغرفة. وكان القمر يسير هبوطاً فوق الأودية، وقد زاد اصفراره وتغيّرت ملامحه. والليل ملتحف برداء السكون، والأرض ناصعة البياض تستحمُّ بنور القمر. فأحسّت الفتاة، في أعماق روحها، بفراغ وحنين، كأنّ هناك حاجةً ملحّة إلى شيء لا تدري كنهه. وفجأةً خطر لها أنّها، منذ طفولتها، لم تَلْقَ عطفاً من أحد. فقد كان بعض مَن عرفَتْهم ينظر إليها نظرة إشفاق، وآخرون نظرة استخفاف ولا مبالاة. وهي تتوق إلى نفس تكون لنفسها شقيقةً ورفيقة. وأين تجد مثل هذه الرفاقة! أفي « بهيج » هذا وهو – ككلّ أبناء طبقته – ينظر إليها وإلى قومها نظرة احتقار،

حتى إذا لاح له بينهم بريقُ ثروة سارع إلى إلقـــاء شبكته وهو واثق من وقوع الصيد !

وحزَّ الألم في صدر الفتاة . وتراءى لها أنّـها كانت ، وستبقى أبــداً ، وحيدة ، لا نفس تشعر شعورها ، ولا قلب يشاطرها الحزن والسرور. فشهقت بالبكاء ، وتسارعت في صدرها الزفرات . وخافت أن يحسّ بها أحد النائمين فحبست دموعها ، وعادت إلى الفراش .

وهنا تمثّـل لها شبحٌ هزيل مزعج وقف أمامها لا يتزحزح . فرأت حياتها مظلمة موحشة ، تمرُّ بها وجوه مُشفقة ، وأخرى ساخرة أو شامتة . وكادت « سميّـة » تتراجع أمام هذا الشبح وقد خذلتها قواها . لكنّـها استعادت عزمها ، وصرخت في وجهه :

ـ لا . لن أكون وحيدة . لي الدنيـــا بطولها وعرضها ، والدنيا هي بيتي وميدان عملي . وإذا كان الزواج لا يمنحني ما أتوق إليه ، فما معنى الزواج ؟

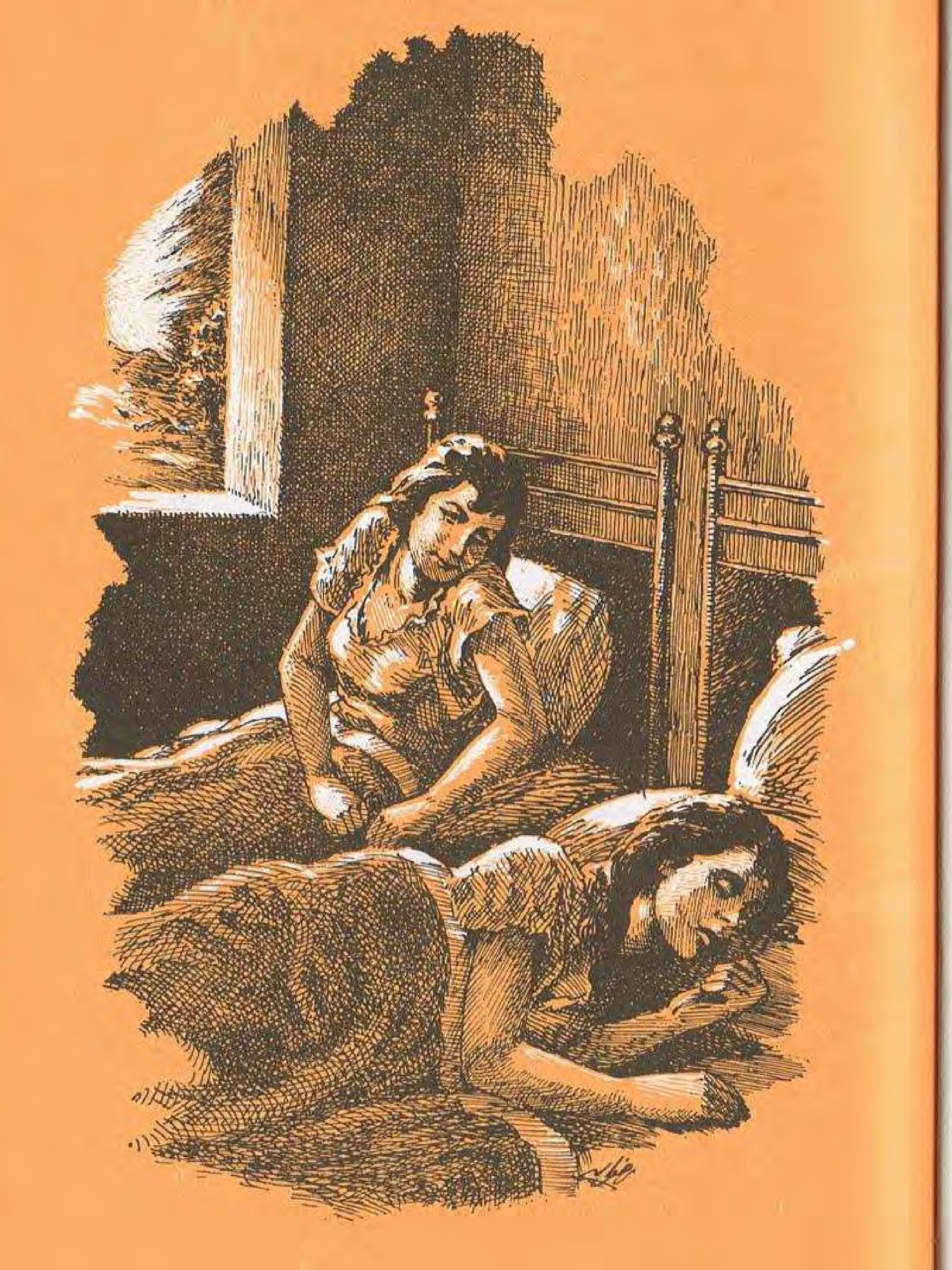
وأطبقت جفنيها عند هـــذه الفكرة واستسلمت لنوم مطمئنّ .

★

كانت أنفاس الصباح تهبُّ باردة فوق الجبال ، وتدخل الغرفة حيث رقدت الفتاة وأختها ، فتدغدغ حواسّها روائحُ الصنوبر والأعشاب البرّية . وتدفّـق النور بحراً يغمر العيون بأمواجه ، ففتحت « سميّـة » عينيها المتعَـبتين ، وأدارت نظرها في أجزاء الغرفة ، فاستقرّ على أختها « سامية » . وعجبت كيف أنّـها لم تفكّـر في هذه الفتاة قبل الآن .

كانت « سامية » في الثامنة عشرة من العمر ، تنمو في ظلّ الطبيعة كالأزهار البرّية ، وقد انصرفَت إلى أعمال البيت مكان « سميّـة » ، فنشط ساعداها في أحضان النور والهواء النقيّ .

وتمتمت « سميّـة » قائلة : « زهرة نضرة . لكنّـها كالطائر المكسور الجناح ، إذ لم تتعلّـم السير وحدها ، فهي آلة في أيدي الأهـــل والأولياء » . وتحرّكت في



نفسها عاطفةٌ كامنة ، فنادت بصوت خافت : « سامية ! سامية ! »

وفتحت الفتاة عينيها فـلاح فيهما نور ابتسامة ساذجة :

ـ « سميَّة » ؟ ماذا ؟

ـ أريد أن أحادثكِ في أمر هامّ .

ـ قولي... ماذا ؟ ولاح الاندهاش في وجه «سامية».

ـ قولي لي ... أمـا فكَّرتِ مرّةً بالزواج يا أختاه ؟

فأطرقت الفتاة وقـد صبغ خدَّيها الاحمرارُ وتمتمت :

ـ أنا ...

ـ أما خطَبك من أبويك أحد أبناء الضيعة ؟

قولي . إنّ أمرك يهمّني . ألا تثقين بي ؟

ـ بلى . بدون شكّ ... ولكن ...

ـ ولكن ماذا ؟

ـ « شفيق » ... تعرفين « شفيق » ابن خالتي ؟

ـ نعم . ماذا ؟

ـ لقد عشنا صديقَين منذ الصِغَر ، ولا أشكّ في أنّ حبّه لي يعادل حبّي له . لكنّ « شفيق » لا يُرضي والدتي لأنّه فقير . وخالتي تُعرِض عنّي لأنّها تريد لابنها فتاة ذات ثروة .

ـ آه !.. وتنهّدت « سميّة » ، وأدارت وجهها إلى الحائط ، وجمعته بين يديها وهي تخاطب نفسها : « المال ... إنّه كلّ شيء ... وهذه الفتاة المسكينة ما ذنبها ؟ وما ذنب شفيق إذا كان فقيراً ؟ أيضحّون بهما لأجل المال ؟ أم يرسلون الفتاة إلى الدير ؟ »

... وهنا تمثّلت لها « أسماء » .

★

مضى على هذه الليلة يومان . وشاع في القرية خبرٌ آخر ، وهو أنّ « سميّة » رجعت إلى « مصر » وتركت لأهلها رسالة تقول فيها : « إنّي عائدة إلى شغلي في الإسكندريّة ، وتاركةٌ لأختي سامية مبلغ

مئة ليرة ذهبيّة بصفة دوطة ، على شرط أن تقترن بمن تحبّ » .

وبعد بضعة أسابيع كانوا يحتفلون في كنيسة القرية بزفاف « سامية » و« شفيق » . وكانت الكنيسة مكتظّة بالحضور ، والعروس مشرقة كالزنبقة البيضاء ، لكنّ في عينيها ابتسامة كئيبة . وكانت « أمّ شفيق » تقفز كالغزال وعيناها تبرقان بنار الفوز ، و« أمّ الياس » ترمقها بعين الغيرة المتأجّجة في صدرها ، وتقول للستّ « نهاد » الواقفة بجانبها :

ـ طلعت خيريّة بكيس « أمّ شفيق » .

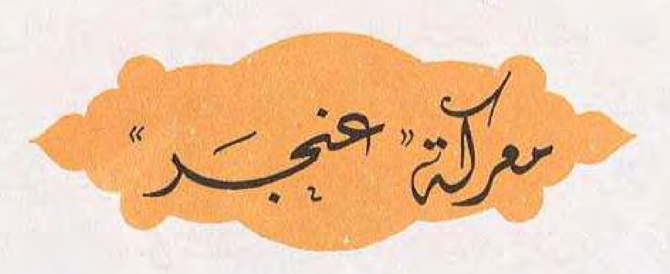
ـ مسكينة « سميّة » . قالت الستّ « نهاد » وهي تتكلّف ابتسامة .

وكانت بجانبها امرأة البيك « أمّ بهيج » ، منتصبة كالبرج وهي تكاد تختنق من شدّة الحرّ والزحام . وإذ سمعَت قول الستّ « نهاد » حدجتها بنظرة ناريّة وهي تقول :

ـ مسكينة ؟ نعم مسكينة ! إنّها مجنونة ، وقد

أراحنا الله منها .

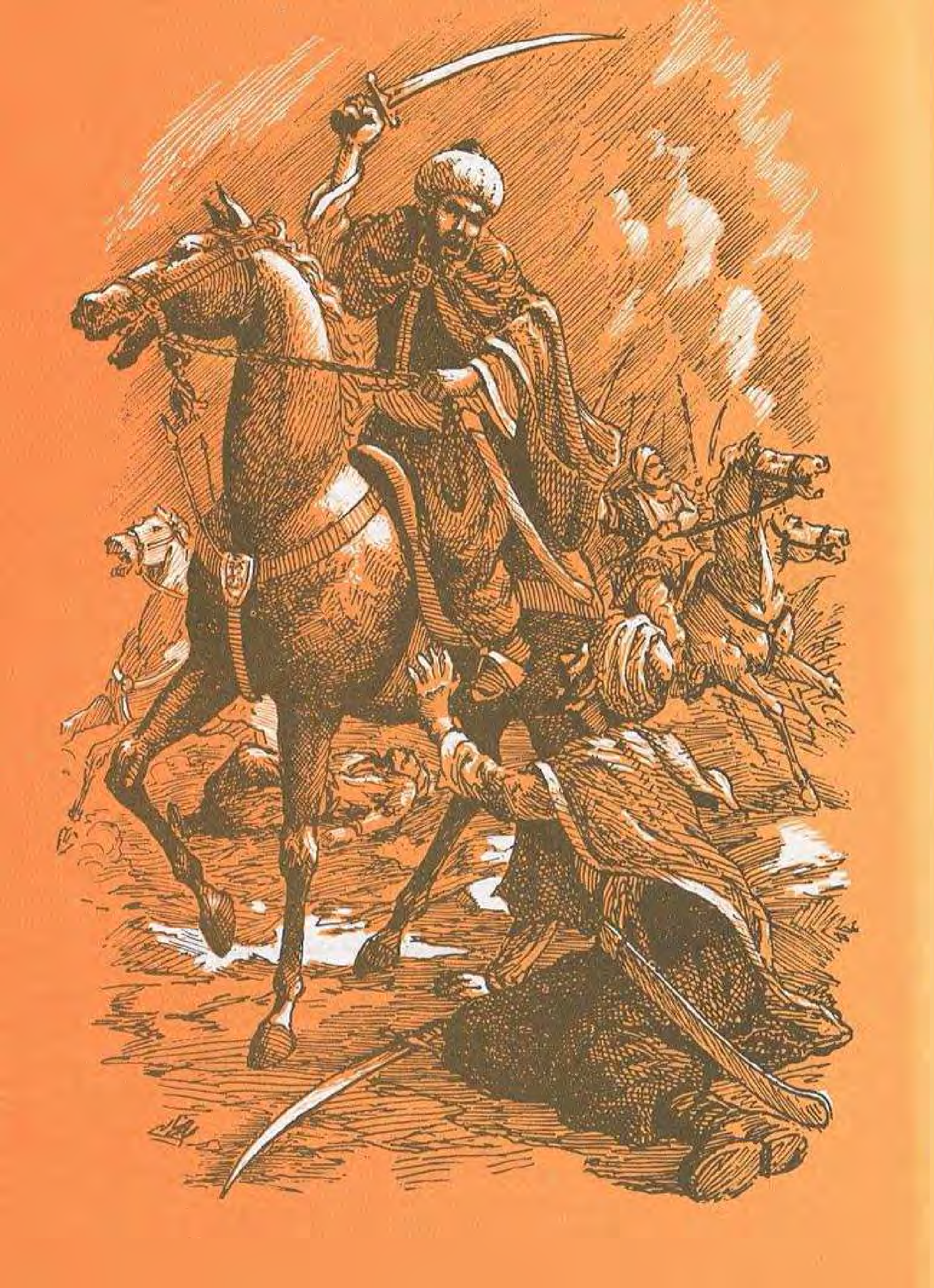
ـ الحقّ معك يا عيوني ، قالت « أمّ الياس » . لأنّه مَن مِن بنات الضيعة تتخلّى عن هـــذا النصيب ، وتترك « بهيج » ابن البيك ، إلاّ التي تخلّى الله عنها وابتلاها بالجنون ؟..



في عَصْر نهار ربيعيّ جلس الأمير المعنيّ « فخر الدين الثاني » يطلب الراحة من عناء النهار ، في شرفة قصره الفخم الذي أشرف على بنائه وتجميله نخبةٌ من المهندسين والفنّانين استقدمهم من « إيطاليا » .

جلس متربّعاً فوق مقعد وثير ، في ظلّ رواق رخاميّ الأعمدة ، تلتفّ حوله نباتات عطريّة مزهرة فتثير جوّاً من الحلم وهناءة العيش .

كان الأمير صغير القامة ، يبدو فوق مقعده كأنّه كومة من الملابس الفاخرة الفضفاضة . قد غرق رأسه تحت عمامة ضخمة ، وظلّلت وجهَه لحيةٌ كثّة ، فلا يكاد يظهر منه إلاّ عينان حادّتان يشعّ منهما نور الطموح والإقدام . يُطرق حيناً ليغوص في تفكير



حالم ، ثم يمدّ بصره نحو البحر الأزرق الكبير الذي يغسل قدَمي « بيروت » ، هذا البحر الذي حمله منذ عشر سنوات خلتْ إلى « توسـكانة » ، حيث قضى خمسة أعوام حافلة بالتجارب ، وعقد مع أمرائها عهد صداقة كان من نتائجه أن أصبح « لبنان » مركزاً تجاريّاً وسياحيّاً لا يُستهان بـه . وإذ ذاك يحوِّل الأمير بصره ناحية الشرق ليُلقي نظرة عطف على الجبل الأشمّ معقل المعنيّين ، حيث يعتصم جيشه الباسل ، وحيث تنبسط ، على مـدّ النظر ، كرومُ العنب والزيتون ، وحقولُ القمح ، ومغارس التوت ، منبع ثروة الجبل ، ومصدر خيراته .

وداعب أنفَه عطرُ الياسمينة المنتشر ، فعبّ منه ملء رئتيه . ولمعت عيناه ببريق الفوز والكِبْر . ألم يقضِ على أعدائه واحداً تلو آخر ، وفقاً للخطّة التي رسمها قبـل سنوات ، بإشارة أمّه « نسب التنوخيّة » ؟ قضى على « ابن فريخ » في « البقاع » ، وعلى « ابن سيفا » في الشمال ... بسط سلطانه على « صفد »

و « نابلس » ، وها إنّه قد حقّق حلمه الأخير ... بنى
في « بيروت » القصرَ الجديد الذي أراده درّة لامعة في
تاريخ الإمارة ، آيةً من آيات الفنّ والعمران الغربيّ
الحديث .

ولكن ... هوذا وقع أقدام ينتهي إليه . لعلّه
واحد من أهل بطانته جاء يعكّر عليه صفاء خلوته.
لقد صدق ظنّه ، ودخل عليه من غير استئذان
خادمُه الخاصّ « يوسف المجري »، فسلّمه ورقةً مطويّة
كانت مخبوءة تحت زنّاره. فتناولها الأمير وأشار إلى
الرجل بالانصراف . وما إن قرأ الورقة حتى انكمشت
ملامحه وفارقه زهوه . تذكّر ما كانت تردّده أمّه
أحياناً على سمعه : « عليكَ بالسهر . الدهر دولاب ،
والدنيا لا تدوم على حال » .

ما أصدقَ هذا القولَ ! ألدهر لا يدوم على حال .
بالأمس انتقم من حليفه الخائن « يونس بن حرفوش »
الذي حرّض عليه والي « دمشق » فاحتلّ أرضه في
« البقاع » . وحين ظنّ أنّ الجوّ قد صفا له ، إذا

به يتلبّد من جديد . هذه الرسالة التي بعث بها أحد
رجاله الأمناء تنذره بشرٍّ مستطير : إنّ عدوّه « ابن
سيفا » ، الذي سحقه سحقاً ونقل حجـار حصونه
المهدّمة ليبني بها قصره في « دير القمر » ، « ابن سيفا »
عدوّه اللدود ، يأبى النوم على الضيم . فقد لجأ إلى
« دمشق » عن طريق « حمص » ، وانضمّ رجاله ورجال
« يونس بن حرفوش » إلى جيش الوالي « مصطفى باشا »
الذي يحمل « لفخر الدين » من الحقد والكراهية
أضعافَ ما يحمله « ابن سيفا » .

ثلاثة جيوش تستعدّ لمهاجمته دفعة واحدة !.. لقد
انتصر على خصومه فيما مضى حين قابلهم منفردين ...
أمّا الآن ، فماذا ؟ هل يهرب من « مصطفى باشا » كما
هرب قبلُ من « حافظ باشا » إلى « توسكانة » ؟

ونهض من مقعده وأخذ يذرع الأرض ويعبث
بلحيته ، كعادته في ساعات الغضب والانفعال الشديد .
وإذا بباب الشرفة ينشقّ ، وتطلّ أمّه بوجهها الهادئ
وعينيها الصافيتين ، فيخفّ للقائها ويقبّل يدها

قائلاً :

ـ كنت أفكّر فيك يا أمّي ! ما الذي جاء بك من « دير القمر » ؟ كيف علمت أنّي بحاجة إليك ؟

ـ حلمت بك في نومي . رأيت في وجهك قَلقاً وانزعاجاً فجئت لأطمئنّ عليك .

ـ لقد صحّ ظنّك . فإنّي قلِق ، حائر النفس .

ـ هل هناك خطر من ناحية « دمشق » ؟ أم من ناحية الباب العالي ؟

ـ نعم، كلاهما يُعدّ العدّة لمهاجمتي. فوالي « دمشق » لا يقدم على الحرب إلاّ بوحي من « الآستانة » .

ـ لا تستسلم للخوف يا بنيّ .

ـ كيف لا أخاف يا أمّي ؟ أعدائي هذه المرّة كثيرون . إثنا عشر ألفَ انكشاريّ من « الشام » يتهيّأون لغزو بلادي ، يؤازرهم رجال « ابن سيفا » من ناحية ، و « ابن حرفوش » من ناحية أخرى ؛ وجيشي لا يتجاوز أربعة آلاف ...

ـ لكنّ رجالك أعظم بأساً . إنّهم يدافعون عن

أرضهم . أمّا رجال الباشا فمأجورون .

ـ لكنّ رجال الباشا يفوقونهم عدداً وعُدّة !

ـ إسمع يا بنيّ . رأيي أن لا تبدّد نشاطك في الهلع والاضطراب ، ولا تنتظر هجوم أعدائك عليك . بل أن تذهب بجيشك للقائهم فتفاجئهم وتطوّقهم وتتغدّاهم قبل أن يتعشّوك !

★

عمل « فخر الدين » بمشورة أمّه . جمع جيشه الوطنيّ المؤلّف من أبناء الجبل الأشدّاء . ضمّ إليهم السكمانيّة المرتزقة ، ورجالَ حلفائه الشهابيّين حكّام « وادي التيم » ، ومعهم متاولة « بلاد بشارة » .

وزحف جيش الوالي نحو « لبنان » زحفَ الجراد . وما إن بلغ سهل « عنجر » ، القريب من الحدود ، حتى أطبق عليه من التلال المحيطة جيشُ اللبنانيّين يقودهم الأمير بنفسه ، يخفره من الجانبين فرقتان بقيادة ابنِه « علي » وأخيه « يونس » .

ودارت رحى معركة هائلة تلاحم فيها الفريقان بالسلاح الأبيض وشقّ غبارها عنان السماء . تلامعت

السيوف، وتطايرت الرؤوس، وارتجفت السهول والتلال من هول القتال . وأظهر الأمير وحلفاؤه من البسالة والحنكة ما ألقى الذعر في صدور أعدائهم ، فتراجع الانكشاريّة وانهزموا عابرين على جثث قتلاهم ، تاركين وراءهم أكداساً من الذخائر والأعلام فوق ذلك السهل الفسيح .

وفيما كان « فخر الدين » معتلياً صهوة جواده ، يتنقّل مبتهجاً بانتصاره بين الجرحى والقتلى المنطرحين مع جيادهم فوق التراب ، إذا به يبصر عدوّه « مصطفى باشا » وقد تركه رجاله جريحاً خائراً لا يقوى على الحركة ، وحيداً أعزل يئنّ من الألم ولا يجد من يلتفت إليه .

إشتعل صدر « فخر الدين » بنار الحقد ، ورفع السيف ليضرب عدوّه ويثأر منه . لكنّه رأى ذلك الرجل الجبّار يتحامل على نفسه ، يزحف متثاقلاً ، يجثو أمامه ويقول بصوت متهدّج : « أستحلفك بأعزّ إنسان لديك أن تعفو عنّي » !.. لاح « لفخر الدين »

خيال أمّه تحدّق إليه بوجهها الهادىء وعينيها الصافيتين . أيستطيع أن يردّ طلباً جاءه باسمها ؟ خيّل له أنّها تقول ، وعلى فمها ابتسامة : « العفو عند المقدرة يا بنيّ » . وللحال ردّ سيفه إلى غمده ، ثم قال لرجاله الذين اجتمعوا حوله :

ـ لقد صفحت عنه . أريد منكم أن توصلوه سالماً إلى « دمشق » وتبذلوا له من وسائل العناية والإكرام ما يليق بمقامه .

ولقي « فخر الدين » جزاء حِلمه . فما إن وصل الباشا إلى « الشام » حتى بادر إلى الاعتراف بسيطرة الأمير على سائر ألوية « فلسطين » ، بما فيها « غزة » و « عجلون » . فامتدّ ملكه إلى « عريش مصر » ولُقّب بسلطان البرّ . وكان ذلك سنة ١٦٢٤ .



كان أحد الملوك يحكم بلاداً غنيّة كثيرة الخير ، وكان مشهوراً بالعدل والسهر على مصالح السكّان .

في أحد الأيّام أرسل مَن ينادي في الناس قائلاً : إنّ الملك ، رغبةً منه في الترفيه عن الشعب وإزالة أسقامه ، يريد أن يجتمع لديه جميع التعساء والمتألّمين والذين أثقلت نفوسَهم الهمومُ والمتاعب ؛ لأنّه يرغب في مداواة ذوي الهموم ، ومعالجة المرضى ، وإسعاد البائسين ، ومساعدة المنكوبين والمظلومين .

ما انتشر هذا النداء في السكّان حتى اجتمع في ساحة القصر ألوفٌ من المصابين في نفوسهم أو في أجسامهم : خلائق بائسة من رجال ونساء ، قد هبطت ملامحُهم ، واسترخت شفاههم ، وانحنت

ظهورهم من الهمّ ، مع أنّ أكثرهم لم يجاوزوا سنّ الشباب .

وقف الملك في هذه الجماعات المحتشدة في قصره ، وأعلن أنّه هيّأ لهم الأطبّاء والحكماء وعلماء النفس ليداووا أجسامهم وأرواحهم في آن معاً . فكثيراً ما تجتمع العلّتان الجسميّة والنفسيّة في شخص واحد ، لأنّ الواحدة تولّد الأخرى . ثم أضاف أنّه سيُشرف هو بذاته على العلاجات ، فيبحث مع معاونيه العلل المستعصية . أمّا مَن كان أسوأهم حالاً فسيتولّى أمره بنفسه .

عندما بدت إشارة من الملك أخذ كلٌّ من أولئك التعساء يشكو علّته للطبيب ، أو للعالِم ، أو للعرّاف والكاهن . كان فيهم فقراء يحتاجون إلى مال أو إلى مسكن وغذاء ، ومعالجتهم في منتهى السهولة ؛ وكان فيهم مرضى مزمنون نقلهم الأطبّاء إلى المستشفيات والمصحّات ليكونوا هناك قيد المعالجة الطويلة .

وكان هناك ذوو النفوس المثقَلة بالهموم : أزواج

بلا أولاد ، ونساء بلا أزواج : أرامل وفتيات . فجدّ الأطبّاء في إيجاد أحدث العلاجات وأنجعها لشفاء المصابين بالعقم ، وحين خابت مساعيهم قدّموا لهم عدداً من الأطفال على سبيل الهدايا . وانتُدب الوسطاء لإيجاد أزواج لأولئك الذين جفّت نفوسهم من الوحدة ، نساء كانوا أم رجالاً .

واهتمّ الملك بمواجهة ذوي العلل المستعصية ، فدعاهم ليقتربوا منه .

تقدّمت فتاة هزيلة غائرة العينين فقالت :

– إنّ دائي ، أيّها الملك ، لا دواء له . إنّي أحبّ فتى لا يُحبّني . وقد فقدت كلّ أمل في الحبّ وفي الوجود .

قال الملك :

– سأجمع كلّ رجال قصري ، لعلّك تجدين في أحدهم عوضاً من الذي تحبّين .

قالت :

– لا أستطيع أن أحبّ سواه .



قال الملك :

-علاجك سهلٌ هيّن أيّتها الفتاة . ستقيمين في القصر ، وسنسقيك من عشبة النسيان ، فإمّا أن تنسي حبَّك ، أو نجد لكِ ممّن تحبّين بديلاً .

وتقدّم من الملك كهلٌ بدين ، ضخم الشفتين ، زائغ النظرات ، وقال :

- إنّ دائي ، أيّها الملك ، هو الجشع . إنّ لديّ أكداساً من الذهب والفضّة والنفائس والحليّ . وأراني كلّما ازددتُ مالاً ازددتُ شرهاً ورغبة . فلو جُمعت لي أموال الدنيا بأسرها لم يزدني ذلك إلاّ حرصاً على المال وطلباً له . إنّ نار الشهوة تأكل أحشائي .

قال الملك :

- ستضع الحكومة يدها على أموالك ، وتنفق نصف دخلك كلَّ سنة على تحسين الأحوال العامّة . فتعطي منه للباحثين في المختبرات ، والعاملين في

الحقــل الاجتماعيّ ، وللمستشفيات وبيوت العجزة والمدارس ومراكز الإسعاف ودور الثقافة والأنديـة الرياضيّـة ، وسائر المشاريع العامّة . فأنت تجمع من ناحية ، ونحن ننفق من ناحية أخرى . وكلّما أمعنت في الجمع أمعنّا نحـن في الإنفاق ، لعلّك ترعوي أو ترتوي .

وتقدّمت امرأة مشعّثة الشعر ، بارزة الخدّين ، مغضّنة الجبين ، وقالت :

ـ إنّ دائي هو البغض . أعيش في قـوم أكرههم ، وأكره قومي لأنّهم أزوجوني بمن أكره . إنّ نار الحقد ترعى قلبي حتى أصبحت أكره البشر وأودّ سحقهم .

قال الملك مبتسماً :

ـ لقد وُلدتِ في بيئة نقمة وشقاء نضبت فيها مياهُ الألفة والصداقة . أنتِ في حاجة إلى غـذاء روحيّ تستمدّينه من قلوب نقيّة غير ملوّثة بأدران الشهوة والطمع . سنضعك في مدرسة أطفال تفيض

قـلوبهم نقاوة ، فتُشيع رفقتهم في نفسك هدى وطمأنينة .

تقدّم بعد ذلك رجلٌ محدودب الظهر ، كثيفُ الحاجبين ، قد حفر الشقاء في وجهه حُفَراً بليغة ، فوقف أمام الملك وقال :

ـ ارفق بي يا سيّدي . أعنّي بميتة تخلّصني من عذابي . هـا قد مضى عليّ عشرون سنة وأنا فريسة الندم وعذاب الضمير .

ساله الملك :

ـ ما خَطْبُكَ ؟

فأجاب الرجل بصوت متهدّج :

ـ لقد قتلتُ ابني الوحيد . وقفتُ حاجزاً في سبيل سعادتـه . كنت فظّاً أنانيّاً جشعاً . منعت عنه الفتاة التي أحبّها ، فقتله اليأس .

قال الملك :

ـ دواء الأنانيّة البذل . سوف نجعلك رسول

خير في بعض القرى النائية عن المدنيّة والعمران . تبثّ فيها رسالة العلم والنور ، وتسعى لتأليف القلوب ، وتحرير النفوس من وطأة التقاليد الجائرة وظلم الطغاة والمستبدّين على شاكلتك .

وفيما الملك يتكلّم إذ برز من بين الجمهور رجلٌ قصير القامة ، منتفخ الخدّين ، مسترخي الجفنين ، رأسه في حركة مستمرّة كأنّه لا يستطيع الاستقرار بين كتفيه .

ألقى عليه الملك نظرة فاحصة وقال :

ـ وأنت أيّها الرجل ، أيّ وِزر يثقل ظهرك ؟

ـ لا أدري يا مولاي . إنّ في نفسي قلقاً ، وفي صدري لهيباً وظمأ . إنّي مصاب بالأرق وانهيار الأعصاب ، ولطالما سعيت لإيجاد دواء فلم أنجح .

قال الملك :

ـ تعالَ حدّثني عن ماضيك . إعترف لي بما جنيتَه من ذنوب ، لعلّ في ذلك ما يخفّف ألمك .

ـ كيف أعترف أمام هذا الجمع يا سيّدي ؟

ـ حسن . سنصرفهم .

وصفق الملك بيديه فانصرف الحضور ، وبقي الرجل وحده أمام الملك . فقال له الملك :

ـ تكلّم . إنّي مصغٍ إليك .

وبدأ الرجل قصّته فقال :

ـ إنّي أنتمي إلى أسرة عريقة في مدينتي . وقد خطر لي أن أستغلّ الاسم الذي أحمله ، وطمحت نفسي إلى السلطان . أردت أن أكون زعيماً في قومي وحاكماً في مدينتي ، فاتّخذت لي أعواناً استملتهم إليّ بالرشوة والوعود ، فأصبحوا لي عبيداً أرقّاء ، آمرهم فيطيعون . ولمّا استتبّ لي الأمر تماديتُ في الغيّ والاستبداد . ولم أتورّع من نهب أموال الشعب لأوزّعها على أعواني وأخصّائي ، ولم أخشَ التنكيل بالضعفاء ، وإنزال العقوبات بالأبرياء لأُرضي الأقوياء الذين استظهرتُ بهم . وظلّ هذا دأبي حتى أصابني داء غريب وصرتُ كما ترى .

فقطّب الملك حاجبيه وقال :

ـ قليلٌ هو جزاؤك بالقياس إلى فداحة جرمك ، أيّها الرجل . بين زملائك الشاكين مجرمون ، لكنْ ليس في جرائمهم ما يعادل جرمك ... هذا الذي تقدّمك في الاعتراف قتل نفساً واحدة ، أمّا أنت فقد قتلت شعباً بكامله ، لأنّك أفسدت البعض فزيّنت لهم الشرَّ وتعاونت وإيّاهم على الفساد ، وظلمت البعض الآخر فاذللتهم وسحقت نفوسهم وجعلتهم أحياء كالأموات . وأرى أنْ لا دواء لك عندي سوى السجن ، واحتمال الأسى وعذاب الضمير .

إنتهى الملك من عرض موكب البؤس . وجلس يستريح ، وهو يفرك يديه مسروراً ، ظنّاً أنّه قد ضمن لشعبه الراحة وحرّره من آلامه . ولكن ما كاد يستقرّ به المقامُ حتى سمع هاتفاً يقول له :

ـ أتظنّ ، أيّها الملك ، أنّك وُفّقت إلى محو البؤس من بلادك ؟ إنّ أسوأ العيوب هي العيوب

الخفيّة . وأسوأ الناس حالاً بائس لا يُعلن بؤسه . وأحراهم بالإشفاق مظلوم لا يشكو ظلمه ، يقبل الغَبن والإرهاق وهو ساكت جهلاً أو خوفاً أو كِبراً ... لقد سمعتَ شكاوى الناقمين والثائرين على أوضاعهم ، وبقي أن تعرف أحوال الذين لا يشكون ...

وحار الملك في مصدر الصوت ، وهمَّ بالبحث عنه . ثم غلبه النعاس لشدّة التعب ، فنام وهو يحلم بما قاله صاحب الصوت الخفيّ



في القطار

ألقطار يزحف متباطئاً ، رتيب الحركة ، مجتازاً السهل اللومبرديّ الأخضر الفسيح الذي تخترقه الطرُق طولاً وعرضاً فتقسمه إلى مربّعات شبيهة بمربّعات الداما . وتهبُّ من ناحية جبال « الألب » نسماتٌ مسائيّة باردة فوق الأعشاب والأشجار ، فتسري فيها رعشةُ السرور .

« إيناس » في مقعدها تستسلم لسحر الحركة والهدير ، وعيناها لا تفارقان زجاج النافذة . لأوّل مرّة في حياتها تختبر سفر القطار ، تحسّ اهتزازه الإيقاعيّ المخدِّر كحركة السرير التي تغري الطفل بالنوم . تحدّثت إلى رفيقها في المقعد المواجه عمّا

يثيره فيها القطار من أحاسيس ، فلم يفقه من حديثها شيئاً ؛ لكنّ الرفيق الآخر الذي جلس بجانب النافذة يطيل النظر إلى السهل والأفق ، هذا الشابّ الدقيق الملامح ، أصغى إليها بابتسامة ، ثم قال بعبارة فرنسيّة رقيقة :

ـ تتكلّمين مثل شاعرة . هل مارستِ بعض الفنون ؟

ـ لا . قالت بارتباك ، إلاّ الرسم قليلاً .

ـ آه . ألتصوير مهنتي .

ـ لا شكّ أنّك تقصد « سويسرا » لأخذ بعض المناظر .

ـ تماماً . وأنتِ ؟

ـ للترويح عن النفس .

أخذ يحدّثها بحماسة عن الألوان التي يحبّها : إنّه ما يزال أقرب إلى الانطباعيّين منه إلى مدرسة الرسم الحديث ، يصوّر الطبيعة نابضة بالحياة والشعور . كلّ

زهرة ، كلّ ورقة ، حتى الصخر ينطق ويعبّر . ولكنّه لا يقتصر على المناظر الطبيعيّة ، بل يميل أيضاً إلى الوجوه المعبّرة .

هل يبيع كثيراً من لوحاته ؟ طرحت عليه هذا السؤال ، فأجاب بكلّ بساطة أنّه يبيع قسماً منها ، ويحتفظ بالقسم الآخر لنفسه ولأصدقائه الأقربين . من هم ؟ زملاء يحبّهم ، وأصدقاء يثق بهم . لكنّه يعتمد في معاشه على دخلٍ تركته له أمّه العزيزة قبل وفاتها. أمّا أبوه فقد تزوّج امرأة أخرى وأهمله .

هذا مجمل حديثه إليها . كان حديثاً طويلاً أصغت إليه كأنّها تصغي إلى إنسان تعرفه منذ عهد بعيد ، منذ حداثتها . ومع أنّها تكاد لا تعرف شيئاً عن فنّ التصوير ، استطاعت أن تفهم كلّ ما قال . فقد تحدّث بمنتهى البساطة ، وربّما فعل ذلك عمداً لإفهامها . كان يودّ مواصلة حديثه لولا صفير القطار ، وانهماك الركّاب بجمع أمتعتهم وتهيئة جوازاتهم . وأدهشها أنّه أفرغ أمامها كلّ ما في صدره ، من غير أن يسأل من هي ومن أين أتت . حتى اسمها لم يطلب أن يعرفه . لكنّه

حرص على أخذ عنوان الفندق الذي تنزل فيه . وقبل افتراقهما ناولته بطاقتها ووعد بأن يأتي لزيارتها .

كم عمره ؟ يبدو أنّه دون الثلاثين . رَبْعة ، ممتلىء الجسم ، غزير الشعر يتدلّى منه خصل كستنائيّة فوق جبين مشرق عريض ، في تقاطيع وجهه وجسمه جمال التماثيل ، جمال المنحوتات التي يصنعها الايطاليّون ، ينقلون خطوطها عن شبّانهم وشابّاتهم . إنّهم شعب عريق في الجمال وفي الفنّ ، فلا عجب أن يكثر فيهم الفنّانون .

لقد ألهاها حديثُه عن كلّ شيء . لم تلاحظ المسافرين ووجوههم الغريبة . لم تصِب إلاّ لمحات من الجبال الشاهقة التي اخترقها القطار ، وقد كستها الأشجار الباسقة فبدت ، في ظلّ المساء ، قاتمةَ اللون حتى السواد ، كأنّها شموع عملاقة ، عظيمة الجوانب ، مستدقّة الرؤوس ، متطاولة نحو السُحب .

حين استلقت على فراش وثير ، في فندق من

الدرجة الأولى ، سرت في جسمها رعشةُ بردٍ منعش . وما لبث الدم أن جرى في عروقها حاراً نشيطاً متدفّقاً . إنّها ما زالت تحت تأثير الرحلة الممتِعة في القطار . أو لعلّه المناخ الذي يقصده طلاّب العافية ، فإذا هو بين أيديهم كمارد الخاتم ، يأمرونه فيطيع .

أفاقت في ساعة متأخّرة من الصباح التالي ، بعدَ نوم هانىء عميق . وسمعت وقع أقدام تقترب من غرفتها ، يليها قرعٌ خفيف على الباب . ثم دخلت الخادمة تحمل إليها طبق الفَطور ، ولفت نظرَها في جانبٍ منه بطاقةُ زيارة . إنّه هو ، صديقها المصوّر الذي كان لقاؤها به حلماً عابراً ، لا يجاوز باب القطار . لقد عاد ليجدّد الحلم ، أو ليواصل الحديث ، ولم يمضِ على انقطاعه سوى ليلة واحدة .

كان يحمل اثنتين من لوحاته المفضّلة . كلتاهما متوسّطة الحجم ، مرسومة بالألوان المائيّة ، تمثّل منظراً



عادياً . سألها أن تختار إحداهما فاختارت من غير تردّد ، كأنّها تعرف صاحبها منذ سنين . وشكرها على قبول الهديّة . ولم تسأله عن الثمن لأنّها خافت إغضابه . أنفق عندها ساعة كاملة في الحديث عن لوحاته ، أو مصغياً إلى ملاحظاتها وانتقاداتها ، مع أنّها لم تكن في رأيها ذات قيمة . وجدّد زيارته لها كلّ يوم . كان يأتيها بلوحات جديدة ، ويسألها اختيار لوحة أخرى ، فامتنعت . ورافقته مرّة إلى إحدى الغابات الوارفة الظلال حيث جلس يرسم ، وجلست تتأمّل . وفي ظلّ السكون المخيّم الذي أضفى على الغابة جـــلال المعابد القديمة ، رأته يجثو أمامها كما يجثو المصلّي أمام تمثال معبود ، ويبوح لها بحبّه ، راجياً منها أن تصبح رفيقة حياته لأنّه لن يجد سعادة إلاّ بقربها .

لأوّل مرّة في حياتها تذوق رعشة إحساس مبهَم . خُيّل لها أنّ قلبها يكاد يثب من صدرها ، وأنّ سِلكاً كهربائيّاً يمتدّ منه إلى قلب الفتى الجاثي عند قدميها . وانعقد لسانها فلم تستطع الكلام . ومرّت

برهة طويلة كالدهر قبل أن تفيق من ذهولها لتطلب منه أن ينهض ويرافقها إلى الفندق ، لأنّها تعبة .

نامت تلك الليلة نوماً مضطرباً بخلاف عادتها منذ دخولها هذا الفندق الجميل . لقد خلقت لنفسها مشكلة من غير علمها . تركت هذا الشابّ الغريب يحاول ملازمتها والتقرّب إليها . مهّدت له سبيل الوقوع في حبّها ، وسرعان ما طلب منها تحويل الصداقة إلى زواج ، فماذا تقول له ؟

إنّه لا يعرف عنها شيئاً سوى اسمها . لا ريب أنّه ساذج أعماه الحبّ . كان عليه أن يسأل عنها ، أن يستكشف ماضيها ... يجب أن تكتب إليه ، أن تعترف بكلّ شيء . وبماذا تعترف ؟

إنّ ماضيها صفحة ناصعة البياض ، ستنشرها بلا خجل بجميع تفاصيلها . ستقول كلّ شيء . إنّها أرملة زُوّجت ، وهي فتاة دون العشرين ، بكهل يناهز الخمسين . أكان اللوم عليها حينذاك ؟ لقد كانت غريرة ساذجة تخشى إغضاب والديها ، وكان الزوج رجلاً

مكتمل الرجولة ، منتصب القامة ، عظيم الثروة ، بهرها بسيّارته الفخمة وقصره الكبير ؛ غمرها بالثياب والحلى ، فتهيّبته ، ومثّله لها خيالها الفتيّ جبّاراً من جبابرة العصور القديمة يسيطر على النساء ويُخضعهنّ بإشارة من يده . لكنّها ما لبثت حتى اكتشفت ضلالها ، وهالها الفرق بين الواقع والخيال : رأت هوّة سحيقة تفصل بينها وبين زوجها ، وعلى ذلك بقيت له الزوجة الأمينة التي تواجه الخيبة بشجاعة ، تقوم بالواجبات التي يفرضها عليها زواج رضيت به مختارة ولم يرغمها عليه أحد . وبالشجاعة نفسها تواجه خيبة أخرى : إنّها لم ترزق أولاداً ، ومع هذا قبلت الحرمان بلا شكوى لأنّها تعلّمت أن تخضع للقدر حين لم يكن بدّ من الخضوع .

لكنّها لم تكن سعيدة . وحين مات الزوج بعد مرض طويل تاركاً لها ثروته الطائلة ، شعرت بانفراج السجين الخارج من سجنه .

طلبت السياحة للتنفيس وتبديل الجوّ ، وما

كانت تدري بأنّ مفاجأة عظمى تنتظرها . لقد وجدت فتى أحلامها ، الرجل الذي لم تعرفه إلاّ في الخيال ، الرجل الذي يحبّها لنفسها لا لصبا أو مال ، لأنّه لم يعرف شيئاً عنها . حلمها الدفين يصبح حقيقة ، يتمثّل لها بشراً سويّاً يدعوها إلى مشاطرته لذّات العيش ومباهجه . ما همّها أن يكون أصغر منها سنّاً ؟ فما زال في وجهها بقيّة نضارة تخدع الناظرين وتخفي عنهم حقيقة عمرها . لقد بسم لها الحظّ بعد جفاء ... إنّ شعوراً غامراً يجتاح كيانها ويخلق منها كائناً جديداً . إنّها تود أن ترتمي في أحضان السعادة ارتماءً جنونيّاً . أليس من حقّها أن تشرب الكأس التي حُرمت شربها هذه السنين الطويلة ، وأن تستمتع بما لديها من فتنة باقية ومال كثير ؟

ولكن ... ماذا كان يدري هذا الشابّ من أمرها ؟ يلوح أنّه إنسان وحيد يطلب أمّاً تحنو عليه ، لكنّه قد يبدّل رأيه بعد قليل ويطلب زوجة لا أمّاً . أفتجرؤ على مصارحته بحقيقة سنّها ؟

وهَبْها صارحته ولم يأبه للأمر ، أفتأمل أن تعطيه سعادة كاملة وهي التي ينتظرها ذبولٌ قريب ؟ هل يحتملها في طور الوهن والهبوط كما احتملت زوجها ؟ ألا يمكن أن يستفيق من حلمه ليقول لها : « أربعون سنة تجمّعت في وجهك ، فاغربي عنّي ! »

ومرّت ببالها صورةُ زوجها ، هذا الذي لم يتورّع من الزواج بفتاة تصغره بثلاثين سنة . لماذا تخشى أن تفعل نظيره ؟ .. إنّها تحبّ هذا الشابّ ، تحبّه بكلّ ما في نفسها من قوّة ، فلا تريد أن تجني عليه كما جنى عليها زوجها . لقد كانت حياتها حتى الآن تضحية وسكوتاً وانطواء ، فلتكن كذلك حتى النهاية . لقد ضحّت مرّة أولى في سبيل إنسان لا تحبّه ، فلماذا لا تضحّي الآن في سبيل من تحبّ ؟

وهكذا استقرّ رأيها على ترك الفندق في صباح اليوم التالي من غير أن تُعلمه برحيلها . وحين اتّخذت هذا القرار شعرت كأنّ حملاً ثقيلاً انزاح عن صدرها . فنامت ليلتها هادئة . وفي الصباح الباكر كان القطار

يحملها مرّة أخرى في اتّجاه آخر .

جلست وحيدة ، خاثرة النفس ، على أحد مقاعد الدرجة الأولى . ثم دخلت مقصورتَها سيِّدةٌ أنيقة ، مبرَنطة ، ذات وجه ضحوك وعينين برّاقتين ، يبدو من بياض شعرها وغضون وجهها أنّها جاوزت الخمسين ، لكنّ في حديثها وحركاتها مرح اللواتي لم يجاوزن العشرين .

تحدّثت إلى « إيناس » من غير انقطاع ، منتقلة من موضوع إلى آخر بسهولة عجيبة : تطرح السؤال ، ثم تواصل الكلام من غير أن تنتظر جواباً ، كأنّها تستبق أفكار جليستها ، أو تحاول تسليتها ، من غير أن تكلّفها عناء الجواب . وحين لم يبقَ لها شيء تقوله ، سألت رفيقتها :

ـ هل حام حولك كثيرون من الخنافس ؟

فاضطربت « إيناس » وقالت :

ـ ماذا تعنين ؟

ـ جماعة من الشبّان المتعطّلين ، ينتحلون الفنّ والأناقة ، يلاحقون السائحات ، يمطرونهنّ وابلاً من عبارات الحبّ والثناء ليوقعوهنّ في أشراكهم ويبتزّوا أموالهنّ .

ـ وكيف يختارون المثريات ؟

ـ يعتقدون أنّ المرأة التي تجابه نفقات السياحة لا بدَّ أن تكون مثرية .

إنقطع الحديث برهة بين المرأتين ، حين شُغلت السيّدة المبرنطة بمحادثة أحد موظّفي القطار . أمّا « إيناس » فحوّلت وجهها صوب النافذة ، وانصرفت إلى مراقبة الجبال والأشجار . لن يفوتها هذه المرّة شيءٌ من المناظر الساحرة التي كانت تتوالى أمامها . تريد أن تتملّى من هذه الجمالات ، أن تعبَّ منها كما تعبُّ الهواء الذي حولها ، أن ترسخ دقائقها في ذهنها لكي تمحو ما سبقها من صور وتنفرد برافقتها إلى حيث تقصد .

كان القطار يزحف متمهّلاً ، يهدهدها كأمٍّ تهدهد طفلها لينام .



ـ أُعرِّفك بجارتنا «أمّ محفوظ»: سيّدة وحيدة، ترحّب بكلّ من ترغب في مجالستها ومشاركتها في لعب الورق، لأنّ ابنها، من غير شرّ، يغيب معظم النهار.

هذا ما فاهت به «سعدى»، جارتي الأخرى التي كانت تقضي نهارها في عمل متّصل، نظير المحكوم عليهم بالأشغال الشاقّة. لا تفرغ من غسل الثياب حتى تشرع في الطبخ، لتنتقل منه إلى التنظيف والترقيع وسائر الأعمال التي تُرهِق المرأة القرويّة. و«سعدى» قرويّة متزوّجة، وأمّ خمسة أولاد، فليس لها متّسع من الوقت لتسلية «أمّ محفوظ». وكأنّها بذاك الخطاب تأمل منّي، أنا الجارة الجديدة،

أن أقوم مقامها بواجب حُسن الجوار ، لأنّي أقلّ منها انشغالاً .

نظرتُ إلى « أمّ محفوظ » فشعرت نحوها بانجذاب سريع . كانت امرأة طويلة ، ضامرة ، قد جاوزت الستّين ولمع في رأسها الصلع ، فأخذتْ تعالج بالحِنّاء ما بقي فيه من شعر . وكان لون الصباغ ينسجم مع البريق الكستنائيّ في عينيها ، والبياض الصافي في وجهها وجبينها . لكنّ جاذبيّتها تكمن في الابتسامة المشعّة التي عصرت وجهها عصراً ، وفجّرت حول فمها وعينيها سيولاً من البسمات .

جلستُ بجانبها أراقب حركاتها المتّئدة وهي تجمع الورق ثم تخلطه مراراً ، فتنشره على الطاولة أمامها . ولم يكن بي رغبة في اللعب ، ولا سالتني أن ألعب . لكنّها قالت وهي تبتسم :

ـ أقرأ المستقبل بالورق . إنّي أعشق هذه اللعبة .

سالتها :

ـ ماذا تقولين ؟

ـ أقرأ مستقبل « محفوظ » من غير شرّ . أنظري . هذه هي العروس التي سيتزوّجها . هذه الملكة الشقراء الطويلة الشَعر . سأبقي الورق كما هو ، حتى يأتي ويرى بعينه ما كشفتُ له من مستقبله .

لكنّها انتظرتْ ، وانتظرتُ معها ، ولم يأتِ « محفوظ » . ودقّت ساعة الجدار القديمة الثانية عشرة ، فاستأذنتُ بالانصراف .

عدتُ إليها في اليوم التالي . كنتُ أشعر بحيويّة ونشاط ، لا ريب أنّ مصدرهما جوّ القرية التي انتقلتُ إليها أسوةً بكثيرين مثلي عمدوا إلى هجر العاصمة التي أكلَتْ من أعمارهم شطراً غير قليل . فُتِنتُ بهذه المنازل القديمة المظلّلة بعرائش الكرمة ، الشبيهة بقلاع مرتفعة فوق الأقبية والقناطر المعقودة ، تصلها بالخارج سلالمُ متينةٌ كالأبراج. راقتني صحبة القرويّات الصريحات كهواء أرضهنّ . هنا ، في هذه البيئة الفطريّة ، سالتقي وجوهاً غير مقنّعة ، وأسمع عبارات لا يقصد أصحابها غير ما يقولون ، فلا مكان

عندهم للملق والدعايات .

قادتني « أمّ محفوظ » هذه المرّة إلى الصالة ، أو غرفة الاستقبال ، العالية السقف ، ذات النوافذ الهائلة الحجم . شعرتُ حين دخولها أنّي في معبد خيّم عليه السكون والرهبة ؛ فقد كانت الستائر الكثيفة المنسدلة فوق النوافذ تحجب النور إلاّ قليلا ، وكانت رائحة القِدم تفوح من الأثاث والجدران .

لم نمكث طويلاً في الصالة المهجورة ، إذ انتقلنا إلى الدار حيث المقاعدُ القديمة المحاذية للجدران تمتدّ في خطّ مستقيم ، والطاولة المستديرة المجلّلة بغطاء مخمليّ قد تكدّست فوقها جرائدُ ومجلاّت تركها « محفوظ » هناك للعَرض أو للمطالعة .

واصلنا التنقُّل حتى بلغنا غرفة المؤونة . وإذ دخلتُها انبعثت في ذهني ذكريات نائمة : ذكرتُ البيت الجبليّ الذي كانت تسكنه جدّتي ، تذكّرت خزائنها التي كانت تفتحها كلّما ذهبنا لزيارتها فتفوح منها روائح طيّبة ، روائح الصابون المصنوع في بيتها ، والصعتر ،

وماء الزهر . كانت زنابيل الزبيب والجوز واللوز المصفوفةُ فوق الرفوف تملأ قلوبنا فرحاً ، وتثير فينا رغبة عارمة في الهجوم عليها . وكانت جدّتي تحزر ما في رؤوسنا فتملأ أيدينا وجيوبنا بحفنات سخيّة من محتويات زنابيلها ، ثم تدعنا ننطلق إلى الخارج لنلتهم تلك الأطايب ونريحها من جلبتنا .

لكنّي قنعتُ من تلك الأطايب بالذكرى . فـ « أمّ محفوظ » عجّلت في الخروج من غير أن تمدّ إليها يداً ، وسارت بي إلى غرفتها ، حيث وقفتُ مندهشة أمام سرير نحاسيّ شامخ كالهودج ، وخزائن منحوتة في الجدران ، وصناديق مزخرفة ، وتُحف أخرى قديمة من مسارج قائمة وصور وأيقونات تغطّي الجدران . خطر لي أن أقول لها : « إنّ غرفتك محفوفة بالأسرار » ، ولكنْ قطع عليّ الكلامَ انفتاحُ الباب ودخول « محفوظ » .

كنت أنتظر أن أرى شابّاً وسيم الطلعة ، متين العضلات ، من صنف أبناء الجبل الأشدّاء . ولكنّي

رأيت رجلاً على عتبة الكهولة ، مستدير الكتفين ، مترهّل الجسم ، قد غزا رأسَه الصلعُ فلم يبقَ فيه سوى شُعَيرات حمراء . جلس معنا عابساً ، قليل الكلام ، يخيّل للناظر إليه أنّه يفكّر في أمور خطيرة . وما لبث أن اعتذر بأنّه مشغول ، وفارقنا ليختلي في غرفته .

وما انصرف حتى اقتربت منّي الأمُّ وأخذت تحدِّثني بصوت خافت ، وهي تحرّك يديها بإشارات عصبيّة :

ـ لا يخامرك شكّ في أنّي أحسنت تربيته . أرسلته إلى أحسن المدارس . علّمته اللغات . هل تجدين فيه عيباً ؟ إنّه لا يدخّن ، ولا يشرب الخمر ، ولا يؤذي أحداً . لا يغضب ، ولا يرفع صوته ، ولا يفوه بكلمة سوء . يتتبّع رغباتي ويحرص على تنفيذها .

ـ ولماذا لا تزوّجينه ؟

فتنهّدت وقالت :

ـ ذلك همّي الوحيد . حلمي الذهبيّ الذي لا يفارقني لحظة ... ولكنْ لم يسعفني الحظُّ بعد ... لم أجد العروس المناسبة ... لقد شُغِلت منذ سنوات في البحث والتفتيش عن عروس ، في حين شغِل « محفوظ » في البحث عن شغل . ظلّ عدّة سنين متعطِّلاً ، قبل أن يرضى بأن يمارس وظيفة سلّمه إيّاها ابنُ عمّه صاحب شركة الأدوية الكبيرة . إنّه يقوم بتوزيع أدوية الشركة في قرى الجبل ، على رجاء أن يُصبح يوماً ما طبيباً ...

قلت مبهوتة :

ـ قد تكون هناك علاقة بين توزيع الأدوية ومهنة الطبّ ، ولكن ...

وتوقّفتُ عن الكلام ، إذ دخلت الخادمة العجوز تحمل صينيّة القهوة . وقفَت بجانب الباب كالصنم ، ولدى إشارة من ربّة البيت تحرّكتْ كالشبح ، ورأيت فيها قطعة أثاث أخرى يكتمل بها أثاث البيت القديم .

أشارت إليها « أمُّ محفوظ » مرّة ثانية ، فخرَجت وعادت بغلاف أفرغتِ الأمُّ أمامي محتواه : مجموعة ضخمة من صور « محفوظ » في طفولته وفي حداثته . ثم قالت ، وهي تبسط أمامي الصور :

ـ كانت فرْحة « محفوظ » شيئاً لم يعرف مثله أهل القرية . وزّعنا المغلي على الجميع وعلى أهل القرى المجاورة . رُزِقَه الوالدُ على كِبَر ، فظلّ يستقدم له المصوِّرين حتى سنّ العاشرة . أصيب الولد بمرض مفاجىء ، ولشدّة جزع الأب على ابنه دهمته حمّى لم تمهله أكثر من أسبوع .

هنا غلبها التأثّر وهمَّت بالبكاء . فشعرتُ بأنّه قد حان لي أن أنصرف . وودَّعتها مؤكّدةً بأنّي ساعود في اليوم التالي .

وفي اليوم التالي وجدتها عابسة ، منقبضة الملامح . دعتني لأوّل مرّة إلى مشاركتها في لعب الورق . وفجاة رأيتها تنقلب إلى شخص آخر : تكبُّ على اللعب بجميع حواسّها ، تراعي كلّ حركة تصدر

منّي ، تفتّش كلّ ورقة أربحها . إذا أحسّت أنّ كفّة اللعب مالت إلى جانبي لاح في وجهها الغيظُ وبدت كالذئبة الجائعة التي تريد تمزيقي ... يظهر أنّها تنقَم عليّ أمراً أجهله ، أو أنّ غرامها بلعب الورق فائق الحدّ ، فهي لا تحتمل الخسارة ، لذلك تحاول السيطرة على الخصم بإلقاء الاضطراب والوهن في نفسه .

ودخلت الخادمة العجوز تطلب مفتاح القبو لتخرج منه بعض الفحم لأنّها تريد أن تكوي ثياب « محفوظ » . فانتهرَتْها وأخذت تصيح :

ـ هل دبّ فيك الخرف فنسيتِ أن تقولي « من غير شرّ » ؟

ألآن تذكّرتُ أنّه سبق لي ذكر «محفوظ» مرّتين في معرض كلامي من غير أن أردف اسمه بالدعاء . أيكون هذا ما أثار حقدها وبدّل موقفها منّي ؟

قلت أحاول إرضاءها :

ـ ألا ترغبين في أن أُسعفك على إيجـــاد عروس « لمحفوظ » من غير شرّ ؟

فبرقت عيناها بشكل غريب . لا أدري أكان بريق الفرح أم بريق الفضول . وأجابت :

ـ الله يكافئك عنـّي . إنـّي لا أجد في القرية فتاة تناسبه . دبّري لي واحدة من «بيروت» .

ـ طبعاً لا يهمـُّك المظهر الخارجيّ . الأخلاق في الدرجة الأولى .

ـ كيف ؟ أريدها شقراء ، طويلة ، خفيفة الحركة ، حييـَّة ، حسنة الصوت . أريدها على ذوقك .

ـ على ذوقي ، ولكن لا تكثري من الشروط .

ـ تعالي ...

ثم نهضَت وجذبتـني من كمـّي وسارت بي إلى غرفتها . هناك أخرجت من صدرها مفتاحاً فتحت به صندوقاً بجانب السرير النحاسيّ . كان في داخله ثياب عرسها منذ أربعين سنة أو أكثر : الإكليـل الذي

ستلبسه زوجة « محفوظ » ،خاتم زوجها الذي سيلبسه « محفوظ » ، خاتمها الذيستلبســـه العروس ، عقود من زجاج ، أساور فضيـّـة ،دمالج وأيقونات نحاسيـّة ، زخارف وتعاويذ ، فستـان أبيض حريريّ ، وأشياء أخرى سيلبسها ابن « محفوظ » الذي لا يزال في ظهــر الغيب .

سألتها :

ـ وبنت « محفوظ » ؟ أليس لها ثياب في الصندوق ؟

ـ لماذا تريدين لنـــا السوء ؟ أرجو أن لا تلد كنـّتي سوى البنين .

ثم أمسكت بيدي:

ـ أريد هذا كلـَّه سرّاً مدفونـــاً في صدرك . لا تذكري لأحد شيئاً من

أمر الصندوق ، ولا من أمر الفتاة التي تختارينها . ليبقَ هذا سرّاً بيني وبينك . دبّري الفتاة ، وسيكون عرس « محفوظ » مفاجأة للجميع .

زرتُها بعد أيّام برفقـــة « سعدى » ، فتعمّدت السكوت عن موضوع الزواج ، ولم يُتَح لي أن أراها منفردة إلاّ بعد أسابيع . وجاء ذكر « محفوظ » صدفة فقالت :

ـ أما تزالين على وعدك ؟

ـ لا . لقد غيَّرتُ فكري .

فحملقَت في وجهي وسألت :

ـ لماذا ؟

ـ أخاف أن تكون الفتاة التي وقع عليها اختياري ضخمة الأصابع لا تستطيع لبس خاتمك . ولا ريب أنّك تتشاءمين من هذا الأمر ...

ـ ضخمة الأصابع ؟ يا ساتر !

وتباعدت زياراتي لهـــا ، وطويتُ حديث ابنها

وزواجه . لكنّ « سعدى » أثارت الموضوع ، ولا أدري من الذي أخبرها أنّي أسعى لتزويج « محفوظ » ، فأنكرتُ ذلك بشدّة . وأضافت « سعدى » :

ـ بيني وبينك . لا أظنّه يتزوّج وأمّه في قيد الحياة . كلّ ثروة أبيه باسمها ، وهي التي تنفق عليه .

ـ تقول أمّه إنّه سيصبح طبيباً ...

ـ منذ سنين يدّعي البحث عن شغل ، وأمّه تدّعي البحث عن عروس . وفي ظنّي أنْ سيطول سعيهما إلى ما شاء الله ...

جرى هذا الحوار بيني وبين «سعدى» أثناء رجوعنا من السوق في صباح يوم مشمس . لمحنا « أمّ محفوظ » جالسة في شرفة بيتها وقد بسطت على طاولة أمامها ورقَ اللعب تقرأ فيه مستقبلها أو مستقبل ابنها . أشرتُ إليها بالسلام ، وحيّتني بابتسامتها المعسولة التي فُتِنتُ بها يومَ لقيتُها أوّل مرّة .



إقترب الأولاد من جدَّتهم وتوسَّلوا إليها أن تحكي لهم إحدى قِصصها ليمكنهم السهر، حتى تدقَّ أجراس العيد في ليلة الميلاد.

واعتدلت الجَدَّة في مقعدها، وبدأت قصّتها، فقالت:

ـ كنتُ في الثانيةَ عشرةَ من عمري، في سن «لِينة» تماماً، وأصغر قليلاً من «منير»، أسكن مع والديَّ وأخي الأصغر بيتاً في ضواحي المدينة، قديمَ البناء، شديد الرطوبة، تضطرب جدرانه عند هبوب الريح، وتهتزُّ نوافذه وأبوابه الضخمة، فيُسْمَع لها دويٌّ يُصمُّ الآذان.

«كنتُ أجتاز من حداثتي تلك الأزْمَة النفسيّة

التي توجّه أفكار الفتاة نحـــو الدِّين ، فتثير فيها الشكوك حيناً من الزمن ، ثم شيئاً من ردّ الفعـــل يَصرفها إلى شبه تعبُّد صوفيّ وولع بقهر الذات .

« وإذ اقترَب عيد الميلاد انهمكتُ في الاستعداد له بزرعِ حفنـاتٍ من القمـــح والعدس والفول في صُحُف صغيرة ، صَفَفْتُها على أعتاب النوافـذ . ورُحْتُ أرقب نموَّ الأوراق النحيلة الخضراء التي سأزيّن بها مغارة الميلاد ، وأحسُّ في ألوانها الزاهية دفءَ الربيع .

« عُدتُ في ذلك اليوم من المدرسة وأنا أفكّر في شخوص المغارة وأدواتها التي أخرجتها من علبتها القديمة في الليلة السابقة . وعاونني أخي في تهيئة مكان لها ، في زاويةٍ من الردهة محاذية للنافذة . ثم شرعنا في وضع الأساس وصَنع الصخور التي تؤلّف المغارة ، وذلك بان نغلّف إطاراً من الحجـــارة والأخشاب بورق رماديّ ، ونُحدِثَ فيه تجاعيدَ

توهم الناظر أنّه صخرة مجوّفة . ألم تصنعوا مغارتكم هكذا ؟

« على أنّ أمراً كان يَشغَل بالي في ذلك الحين: ماذا أطلب من الطِفل يسوع ليلة الميلاد ؟ ماذا أكتب في الورقة التي ساضعها عند قدميه ؟... أذكر جيّداً أنّني في العام الماضي طلبتُ منه في تلك الرسالة الصغيرة أن يجعلني قليلة الكلام ، لأنّي تألّمت كثيراً من عجزي عن ضبط لساني، وأصابني من جرّاء ذلك المصائبُ ...وقد نجحتِ التجربة . ورأيتُني من ذلك الحين أكثرَ انضباطاً وأقلَّ رغبةً في الثرثرة ... لقد صدقت المعلّمة في قولها إنّ ما نطلبه ليلة الميلاد لا بُدَّ أن يُستجاب ... ولكن ... قالت المعلّمة : « لا تكُنْ طِلباتكنّ أنانيّة ، ولا كثيرة ! طِلْبَةٌ واحدة خيرٌ من اثنتين ! » يعلم الله أنّي لم أكن أنانيّة . فقد كنتُ مصمّمة على أن أطلب شفاء أخي من السعال المزمن الذي ينتابه كلّ شتاء . قال الطبيب إنّه التهاب الشُعَب ، أو مرض آخر من أمراض الصدر . داء

بسيط ، لكنّه لا يُشفى بسهولة ، بل يحتاج إلى تغذية وتغيير هواء ... ولكن أخذت أفكاري تتغيّر منذ أن تخاصمتُ مع تلك الفتاة الشقيّة « هنا مرعي». حدث بيني وبينها خصام حول كتاب استعارَتْه منّي وأعادته ممزّقاً . ولمّا أظهرتُ استيائي وأردتُ توبيخها أخذَتْ تصيح في وجهي غاضبة وترميني بقوارص الكلام . ثم ختمت صياحها بقولها : « خيرٌ لكِ أن تسكتي وتخفضي رأسكِ ، فانا أحسن منكِ ! »

« كان في وسعي أن أردّ شتائمها وأقول لها إنّ أباها يشتغل عاملاً في الأرض ، وأمّها طاهية في بيت أحد الوجهاء . لكنّي كنتُ عاهدتُ نفسي على السكوت والانضباط . وبينما كنت أرتجف من الغيظ والألم أخذتُ أفكّر : ماذا تعني هذه الفتاة بقولها « أنا أحسن منك » ؟ أعرف أنّ بنات الأغنياء ينظرن إلينا من عَلُ ويطيب لهنّ الكَيدُ لنا وتعنيفُنا من غير داعٍ . لكنّ « هنا مرعي » لم تكن غنيّة ... آه !

لقد فهمتُ أخيراً !.. ما أشدّ غباوتي ! إنّها تحتقرني لأنّها بيضاء ممتلئة الوجه والجسم ، في حين كنتُ أنا هزيلةً سمراء ، قليلةَ الحظّ ممّا يسمّونه جمالاً ... من ذلك الحين شعرتِ بشيء من الذلّ ، وأخذتُ أُطيل النظر إلى وجهي في المرآة . وتُلِحّ عليّ فكرة جديدة : لماذا لا أطلب من الطفل يسوع أن يجعلني جميلة ؟ أيحسب ذلك أنانيّة ؟ طِلبة واحدة لا غير أضيفها إلى الأولى ...

« كانت هذه الافكار تساورني وأنا منشغلة في صنع المغارة . فتغشى وجهي الكآبة ، وتنصرف يداي إلى العمل بحركة محمومة . وإذا بي أسمع حواراً يدور بين أبي وأمّي في الغرفة المجاورة للردهة . وإذا بأبي يقول :

ـ لقد تخاصمتُ اليوم مع مدير الشركة وقطعتُ كلّ أمل في الترقية .

فصاحت أمّي :

ـ ولماذا ؟

ـ لن أعيد لكِ تفصيل ما حدث. لكنّي أعرف شيئاً واحداً وهو أنّه عدل عن ترقيتي في مطلع السنة الجديدة.

ـ أيجوز له أن يتصرّف على هواه ويتلاعب بحقوق الموظّفين؟

ـ ولِمَ لا يجوز؟ أتظنّين أنّ له ضميراً يردعه؟

ـ مؤسف ... إنّه يظهر دائماً شديد اللطف والإيناس.

ـ ما أكثرَ اللطفَ الذي يُخفي تحته خبثاً ورياء، قال أبي متنهّداً.

« وتنهّدت والدتي كذلك. ولم تشأْ أن تُخبر أبي بالهدايا التي كانت تحمّلني إيّاها إلى زوجة المدير: أشغال من تطريز كانت ماهرة في صنعها، وكانت ترى من واجبها أن ترسل منها قِطَعاً إلى تلك المرأة، لعلّها تذكر والدي بالخير أمام زوجها. ولو درى أبي بذلك لثار ثائره لأنّه كان شديد الأنفة،

يكره الملق والتزلّف ولو كانا سبيله الوحيد إلى النجاح.

« نمتُ تلك الليلة فريسةَ الهواجس والأحلام المزعجة. حلمتُ « بهنا مرعي » وقد جمعَت حولها بعض الفتيات تخاطبهنَّ بهياج، وتشير نحوي إشارات سخرية واحتقار. ورأيت والدي وقد طرده المدير وعاد إلى البيت مهموماً كاسف البال، في حين جلَستْ أمّي بجانب أخي المريض وهو يهذي من الحمّى.

« لم يبقَ بيننا وبين العيد سوى ليلة واحدة. وقد انتهينا أنا وأخي من صَنع المغارة، فأنرناها بمصابيح الزيت الضئيلة، وزيّنّاها بالعرائش المتدلّية فوق الصخور وبباقات الزرع الزاهيةِ الخضرة، ووضعنا الشخوص الملوّنة: العذراء ويوسف والملائكة والخرفان والرعاة، كلاًّ في مكانه. ولم يبقَ إلاّ أن نضع الطفل يسوع ليلةَ الميلاد. وهيّأْتُ الورقة، وأمسيتُ حائرة في ما أكتب عليها، حتى رأيتُ

أخي في صباح ذلك اليوم البارد وقد عاودته نوبات السعال وأخذ يتقلّب في فراشه متألّماً .

« ولم أتردَّد بعد هذا . بل قرَّرتُ أن أطرُد من رأسي كلَّ فكرةٍ أنانيَّة . لن أطلب المال ولا الغنى ولا الجمال ، ولا شيئاً من ملذّات الدنيا ، بل أكتفي بطِلبة واحدة ، وهي أن يُشفى أخي فلا يلزم فراشه في أسبوع الأعياد ، ولا يُحرَم رؤية المغارة التي أسهم في تهيئتها وتجميلها ، والتي ستظلّ موضوع بهجتنا مدّة أسبوعين بعد العيد .

« وأخذتُ الورقة ، وكتبتُ عليها جملة صغيرة : « يا يسوع اشفِ أخي »، ووضعتُها عند قدمي الطفل الصغير الفاتح ذراعيه بهيئة خشوع وحنان .

« كانت الليلة شديدة البرد والعواصف ، فلم أفكّر في السهر قرب المغارة ، ولم يجرؤ أحد منّا على الخروج لحضور قدّاس الليل ، لأنّ الريح أخذت تشتدّ بصورة مخيفة ، حتى شعرنا بجدران البيت تميد بنا . وتعالى صفير الرياح تهزّ الأشجار هزّاً عنيفاً ،

فتحطّم أغصانها ، وتعصِف بقرميد السطوح فتتناثر قِطَعه في كلّ ناحية ويُسمَع لها دويّ وقرقعة .

« وحين قمنا في الصباح ، وقد هدأتِ العاصفة بعضَ الهدوء ، شهدنا في الرَّدهة منظراً محزناً : كانت الريح قد اقتلعت مصراعَي النافذة التي بجانب المغارة، وأطاحت الشخوص والصخور واللُعَب والمصابيح ، وبعثرَتْها في كلّ جانب وتركَتْها أثراً بعد عَين !..

« فرُحتُ أجمع أشلاءها بعينين دامعتين . ونهض أخي من فراشه وقد أحسَّ بالكارثة فطفق يبكي . وعبثاً حاولت أمّي إسكاته بمختلف الوعود .

« هنا دبَّت الحماسة في صدر والدي فقال :

ـ لا تبكيا . ساصنع لكما مغارة أفضل من هذه .

« كان أبي مولعاً بالرسم والنحت ، ذا مهارة عجيبة في العمل اليدويّ . لكنّه لم يجد وسيلة لاستثمار مقدرته هذه ، ولم يرَ باباً للاستفادة منها . ولمّا عرَضَتْ له هذه الفرصة جمعَ أشتات التماثيل والرسوم والأواني المكسّرة ، فاصلح ما يمكن إصلاحه. ثم جئناه

بقِطع من الخشب ، ونُتَفٍ من الصوف والقطن ، ومقاديرَ من الِجصّ والأصباغ والِخرَق ، فاشتغل طول النهار في صنع الأواني والشخوص المفقودة . وما جاء المساء حتى أعاد صنع المغارة ، فإذا هي أفضل من ذي قبل ،لأنّ جميع الأدوات قد تجدّدت نقوشها وخطوطها وبرزت في حُلّة جديدة .

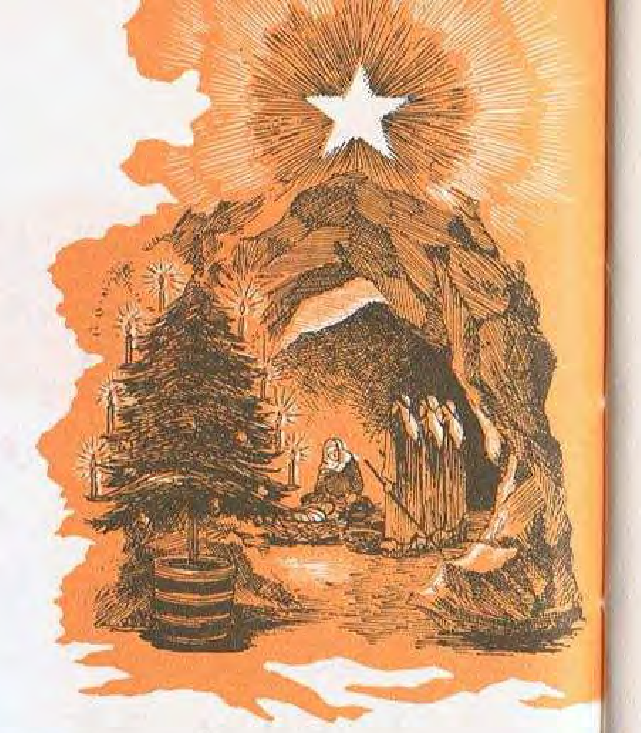
« فهتفنا هتاف الطرب . ووقفت أمّي تتأمّل المغارة المجدّدة ، ثم قالت ضاحكة :

ـ حقّاً يا « نديم » إنّك تستطيع التعيُّش من صنع الشخوص لمغارة الميلاد .

« فقال أبي بلهجة الجدّ :

ـ وأنتِ قلتِ .

« ولم يمضِ زمن حتى استقال أبي من الوظيفة التي استعبدَتْه ولم تدرّ عليه حتى الكَفاف . وأخذ يشتغل في صنع الشخوص واللُعب للأولاد ، وفتح مخزناً لبيعها . وكانت أمّي تعاونه في خياطة أثواب الدُمى وتحضير الرسوم والألوان . وما لبث حتى



وسّع تجارته باشتراك خالي معه في العمل وإسهامه في رأس المال . وبرع أبي في صنع اللُعب ، وتفنّن في ذلك تفنُّناً أكسبه شهرة واسعة في المدينة وخارجها . واستخدم عدداً من العمّال لمعاونته ، وسمّى مخزنه « جنّة الأولاد » ، ثم بنى بجانبه ملعباً واسعاً كان يقصِده الأولاد ليلعبوا فيه مقابل أجرة معيّنة .

« منذ تلك السنة لزِمَتْ والدي ابتسامتُه ومنزلَنا بهجتُه . فأصلحنا بيتنا القديم المتداعي الجدران ، وقضينا الصيف في الجبل ، فتحسّنت صحّة أخي وفارقه السُعال . وكنتُ أنظر إلى وجهي في المرآة فأراه قد أشرق بنور العافية وعلَتْه مسحةٌ من

الجمال ...

« والآن ، ما رأيكم يا أولادي ؟ أتظنّون أنّ الطفل يسوع حزر ما كان يجول في رأسي فاعطاني ما أصرّح به ؟ أم إنّه كافاني لأنّي آثرت الغير على نفسي ، كما كافأ والدي على كدّه واجتهاده ؟ »

الهرُّ البرّي

كان شكله غريباً ، أو هكذا بدا لنا حين وقف في الباب حائراً ، خافضَ الطَّرْف ، متردّداً بين الدخول والانسحاب ، حتى أمسكَت أمّي بيده ودفعته نحو الداخل وهي تقول :

ـ لقيتُه شارداً في الشارع ، يمدُّ يده للمارَّة ولا يجسر على رفع صوته لطلب الصدقة . فجئت به إلى هنا . سأعلّمه كَنْس البيت وغسل الصحون وأشياء أخرى مفيدة ... هذا الطقس الحارّ ينهك القوى ، وإنّي في حاجة إلى مُسعِف .

حين أصبح داخل الردهة تركَّزت عليه أنظارُنا مرّة أخرى . فإذا هو نحيل الجسم ، دقيق الملامح ، في وجهه بياض مائل إلى الصُّفرة ، يتخلّله نمش . يرتدي

لباساً من قطن ، رمادياً مخططاً بالبياض ، شبيهاً بالبيجاما ، وعلى رأسه قلنسوة قاتمة اللون تشدّ رأسه شدّاً . لقد أثار فضولنا بمنظره الكئيب ، لكنّه ، حين رفع بصره ، لمحنا في عينيه الصغيرتين وميضاً يناقض مظهره .

ـ إسمه « كريم » ، قالت أمّي . أظنّ أنّه في العاشرة ، أي أصغر منكما قليلاً .

فقال أخي وقد مال نحو الصبيّ :

ـ إسمي « عادل » ، واسم أختي « ندى » .

لكنّ الصبيّ لم يتحرّك من موضعه ، ولم يبدُ في وجهه أيّة إشارة أو استجابة . ولبث جامداً كالصنم حتى دعته أمّي إلى المطبخ فلحق بها .

★

ـ إنّه يلازم أمّي ملازمة ظلّها ، قلت « لعادل » بعد مرور يومين على قدوم الضيف الجديد . لقد استأثر باهتمامها .

ـ كيف ؟

ـ ألبارحةَ أدخلَتْه الحمَّام . نظّفت له ثيابه وألبسته ثوباً جديداً . واليوم انهمكت طول النهار في غسل الصحون ومسح الغبار ... نكاد لا نراها .

ـ أين هما الآن ؟

ـ في المطبخ .

وسمعنا صوتها تكلّمه :

ـ إغسل البطاطا جيّداً قبل قشرها . هاتِ علبة الملح .

ـ إنّه أبكم لا يحير جواباً . تعالي لنذهب إليه ونحاول حمله على الكلام .

كان واقفاً بجانب الطاولة وبيده سكّين لقشر البطاطا . فاقتربنا منه وانهالت عليه أسئلتنا :

ـ لماذا لا تجلس ؟ ألا تتعب من الوقوف ؟

ـ هل آتيك بالكرسيّ ؟

كانت أمّي منشغلة بتقطيع اللحم فتولّت الجواب عنه :

- لو جلس لما استطاع بلوغ الطاولة لصِغر قامته .

سكتنا برهة ، ثم عدنا نُمطره الأسئلة :

- أين كنت قبل أن تأتي إلى هنا ؟

- ما اسم أمّك ؟ ما أسم أبيك ؟

- إنّه لا يجاوب . لسانه معقود .

- إنّه كالهرّ البرّي : أبرش اللون ، عنيد ، لا يألف أحداً .

- سندعوه الهرّ البريّ . إسم مناسب ...

هنا تدخّلت أمّي وصرخت :

- أُخرجا من هنا ! تلهيانه عن شغله ولا تقومان بايّ عمل ! ألمطبخ للشغل لا للكلام . أخرجا ! إذا واصلتما إزعاجه بالثرثرة سيجرح يده !

خرجنا ناقمين ونحن ندمدم :

- إنّها تدافع عنه . تنحاز إلى جانبه . تطردنا

لأجله . تعامله كالطفل المدلّل ... تخاف أن يجرح يده !

في اليوم التالي فاجأناه وحده في المطبخ أمام كومة من الصحون والقدور مركومة في المجلى . وقفنا نلاحظ حركاته البطيئة وهو يتناول وعاء بعد آخر ، يكشط عنه فضلات الطعام بيديه النحيلتين وقد اسودّت أظافره لما علق بها من أقذار . لم يشعر بنا لأنّه أدار ظهره للباب . وفيما كان يمسك صحناً خزفيّاً يريد غسله صرخنا معاً بصوت واحد :

- الهرّ البرّي !

فاضطربت يداه وسقط منها الصحن فانكسر .

وبسرعة الأرانب انسللنا خارج المطبخ واختبأنا في غرفة النوم ، منصتين لصوت أمّي تكلّمه غاضبة وتؤنّبه على كسر الصحن . توقّعنا أن تكيل له الشتائم ولكنّها لم تفعل . وانتظرنا أن نسمعه مجاوباً أو مدافعاً ، وأن يتحوّل النقاش بينهما إلى خصومة ، لكنّه ظلّ ساكتاً كعادته . أكان سكوته دليل خوف

وحياء ، أم شرٌ ودهاء ؟

قلت هامسة :

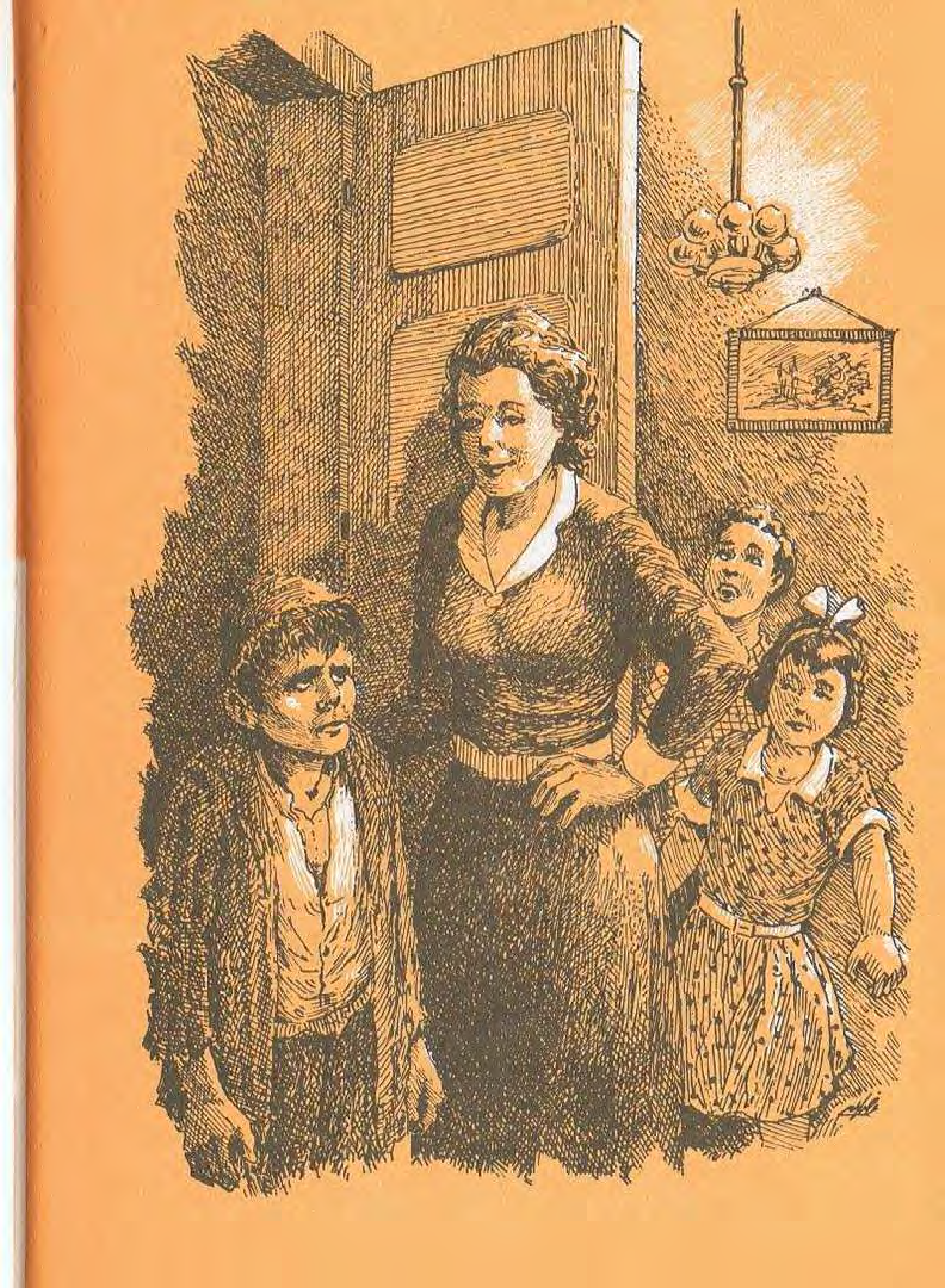
- إسمع . غداً ستغيب أمّي طَوال الصباح حتى الظهر .

- أين ؟

- ستساعد جدّتي في صنع القَوَرْما .

- وسنكون وحدنا نفعل ما نشاء . تعالي نهيّىء الألعاب .

في الصباح ، حين غادرتنا أمّي قائلة : « كونوا هادئين . لا تؤذوا الولد . ساعود بما يسرّكم » ، وعدناها خيراً . وما إن خرَجت حتى رحنا نملأ المكان حركة وصياحاً : نلعب حيناً بالكرة ، وحيناً آخر بالغمّيضة . وتارة نقفز على الحبل ، وطوراً نلعب لعبة الكنز ، وذلك أن يخفي أحدنا شيئاً ويجدّ الآخر في اكتشافه . وجعلنا الهرّ البرّي يشاركنا في اللعب ، نأمره فيطيع : إذا تدحرجت الكرة واختفت وراء السرير



عليه أن يلقطها ؛ إذا انعقد الحبل عليه أن يفكّه ؛
وإذا ضاع شيء عليه أن يحاول إيجاده .

وجنّ « عادل » جنونه فاخذ يرمي الكرة على غير
هدى ، فأصابت إناء زهر موضوعاً في زاوية الردهة
فحطّمته . وحين رجعت أمّي لم يتورّع من اتّهام
« كريم » بكسره .

لكنّ « كريم» ظلّ ساكتاً لم يفتح فاه للاحتجاج .
أمّا والدتي فارتابت في الأمر . أخذت تنقل نظرها
بيننا ، تراقب حركات كلّ واحد وأمارات وجهه لترى
هل في الأمر خداع . أخيراً زجرتْنا جميعاً بصوت
عالٍ وقالت :

– إذا لعبتم بعد بالكرة ، أو بغيرها، داخل البيت ،
ساكسر أرجلكم !

وأرغمتنا من ذلك الحين على اللعب في الخارج،
ومنعتْنا من مخالطة « كريم » والتحرّش به ، فاهملناه
فترة من الوقت . لكنّ أمّي اضطرّت بعد ذلك إلى
التغيّب في زيارة منزل يقع في آخر البلدة .

كان « كريم » يمسح غبار المقاعد وباقي أثاث الردهة ،
حين دخل « عادل » كاللصّ وبيده حجر ومقلاع صغير
مصنوع من عود شُدَّ في طرفه المنشعب قِدَّةُ مطّاط .
كان ينوي تجديد لُعبته السابقة : يطلق الحجر على
الإناء الخزفيّ الآخر الموضوع في الزاوية المقابلة لتلك
التي أصبحت الآن فارغة ، فيكسر الإناء ، ويتّهم
الهرَّ البرّي بكسره . ولمحه « كريم » فركض بأسرع
من لمح البصر ، وأمسك الإناء محاولاً أن يحميه بجسمه
الصغير . لكنّ الحجر انطلق وأصاب رأسه ، فسال
منه الدم غزيراً ، وانفجر الصبيّ بالبكاء . ولأوّل مرّة
سمعتُ صوته ! كان ينشِج نشيجاً عالياً متّصلاً
يُفرغ فيه كلَّ ما في صدره من ألم دفين . فتحرّك
قلبي بالشفقة عليه ، ولكنْ بعد فوات الأوان ... لقد
جاءت أمّي وضمّدت جرحه . وحين شُفي ، ذهبتْ
به إلى الميتم ، لعلّ أصحابه يكونون أرأف به منّا
وأحنى عليه .

أُقسم ، لو عاد اليوم إلى بيتنا لاستغفرته
وأحسنت إليه . لكنّ الطفولة أحياناً قاسية لا ترحم.



كانت فتاةً مديدة القامـــة ، ناصعةَ البياض ، في مشْيتَها خِفَّة الغزلان ، وفي عينيها صفـاءُ الينابيع . أبوها من سلالة الملوك ، وأمّها من نسل آلهة «الأولمب» . قالوا إنّ الأمّ وُلدت في جــزيرة «أفروديت» ، وهي جزيرة «قبرص» ، واتّخذها النحّاتون مثالاً ينقلون عنه تمثال إلهة الجمـال .

وكانت حياتها أسطورة وموتها أيضاً أسطـورة : فقد اختطفها الموت في ريعان الصِبا بعد أن وضعت بنتها «هيلينا» التي كانت صورة طبق الأصل لأمّها ، إلاّ أنّها أرقّ منها صوتاً وأرحب جبيناً . قـال بعضهم إنّ فتى من ذوي قرباها شبيهاً «بابولو» طار بها ألى جزيرة نائية ، وقال آخرون إنّها كانت

تستحمّ على شاطىء «البيره» فاختطفها إلـه البحر وغاب بها ، كما اختُطفت «أوروبا» من قبلها عن شواطىء «فينيقيا» .

لم تدرِ الفتاة شيئاً من الحكايات التي شاعت حول أمّها ، إذ نشأت وحيدة ، لا رفيق لها سوى فتاة أصغر منها سنّاً . وحَرَصَ أبوها على أن يُبقيها في معزل عن ثرثرة الخدم وخرافات العجائز . قضت طفولتها تسرح على الشواطىء التي وطئتها قبلها أقدامُ الآلهة والفنّانين ، وتقف حالمة أمام الآثار التي اختبأت فيها أرواحهم ؛ فتسمع من أفواه التماثيل همسات الوحي ، وتنطلق أشباح الماضي من إسارها لتروي لها أروع الأساطير .

طلب الزواجَ بها واحدٌ من أقارب والدها ، أحد أمراء «هلاّس» . وكان بارعاً في الفتك والبطش ، كأنّه «مارْس» إله الحرب . فأعرضت عنه ، وواصلت تنقّلاتها على الشواطىء الوضّاءة ، تتملّى

نفسُها من سِحْرِ الفنّ والطبيعة ، حتى لقيت في أحد الأمساء فتى قذفت به أمواج «المتوسّط» على تلك الشواطىء حيث وقف مبهوتاً أمام الآلهة المنحوتة في الحجارة ، وخُيّل إليه أنّها تتحفَّز للرقص أو الطيران . وفجأة رأى نفسه أمام إلهة من لحم ودم ، فبرقت أساريره ، وصوّب نحوها عينين سوداوين تشعّان بنور أخّاذ ؛ فمدّت نحوه بصرها ، ورأت فتى في مثل عمرها ، مديدَ القامة ، أسمر اللون ، يلبس ثوباً أرجوانيّاً يكشف ذراعيه المفتولتين ، وعنقاً طويلاً يحمل رأساً متناسق التقاطيع ، كأنّما نحته إزميل «فيدياس» .

قال لها من غير مقدّمات :

ـ أنا سائح من «قرطاجة» . هجرت دار أبي وجِئتُ أَنشدُ الجمال في بلاد أمّي .

ـ إذن أمّك يونانيّة ؟

ـ نعم ، ووالدي فينيقيّ ، لكنّ حبّ الفنّ غلب عندي على حبّ التجارة ، فجئت أَنْشد وحي

الآلهة لأسكبه أشعاراً ورسوماً .

ـ وهل وجدت وحيك هنا ؟

ـ نعم ، ووجدت فيك وحيي الأكبر ، فانتِ من سُلالة الآلهة كما أرى .

ـ فيَّ دماؤهم من ناحية أمّي . أمّا أبي فمن سلالة الملوك الذين ارتادوا البحار . لعلّه فينيقيُّ الأصل . فأنا وإيّاكَ متشابهان ، تتلاقى فينا دماء مختلطة .

ـ لعلّ هذا سرُّ تجاذُبنا .

ـ أبهَذه السرعة ؟

ـ ألا تشعرين بما أشعر به ؟

فاطرقت لحظة ثم قالت :

ـ سنلتقي غداً . في هذا المكان إذا شئت .

فقال :

ـ سانتظر هنا إلى الغد ، ولن يَغمض لي جفن حتى رجوعك .

وعادت إلى أبيها لتقول له إنّها ستتزوّج فتى أسمر اللون ، أرجوانيّ الثوب ، يجمع ألوان الشمس على راحتيه ، وأنغام الأثير على شفتيه .

قال الأب :

ـ أتتزوّجين بغريب شريد ، وتردّين نسيباً لك من سُلالة الملوك والأبطال ؟

قالت :

ـ أعجبني في الفتى ما في رأسه من رؤى الفنّ وكنوز المعرفة .

★

والتقت فتاها عند المساء حيث كان ينتظرها ، فركبا سفينة شِراعيّة ، وأخذا يطوفان بين الجزُر الخضراء المنتثرة في البحر الأبيض ، حتى استشرفا الشاطىء الشرقيّ الذي تحاذيه جبال متماوجة الألوان ، فوقفت تتأمّل مناظره الساحرة . وخفق في صدر الفتى عِرقٌ أصيل يشدُّه إلى أرض أجداده ، فقال لها :

ـ لنقفْ عند هذه الجبال المطِلّة على زرقة البحر ، المكلّلة بالخُضرة ، المعمّمة بالثلوج ،

المزنَّرة بألوان قوس السحاب . هـذه الجبال التي شهدت غرام «عشتار» و«أدونيس» ، حيث عانقت آلهة «اليونان» آلهة «فينيقيا» في هيكل «بعلبك» الجبّار الذي هجرَتْ لأجله «فينوس» و«جوبيتر» جبـال «الأولمب» .

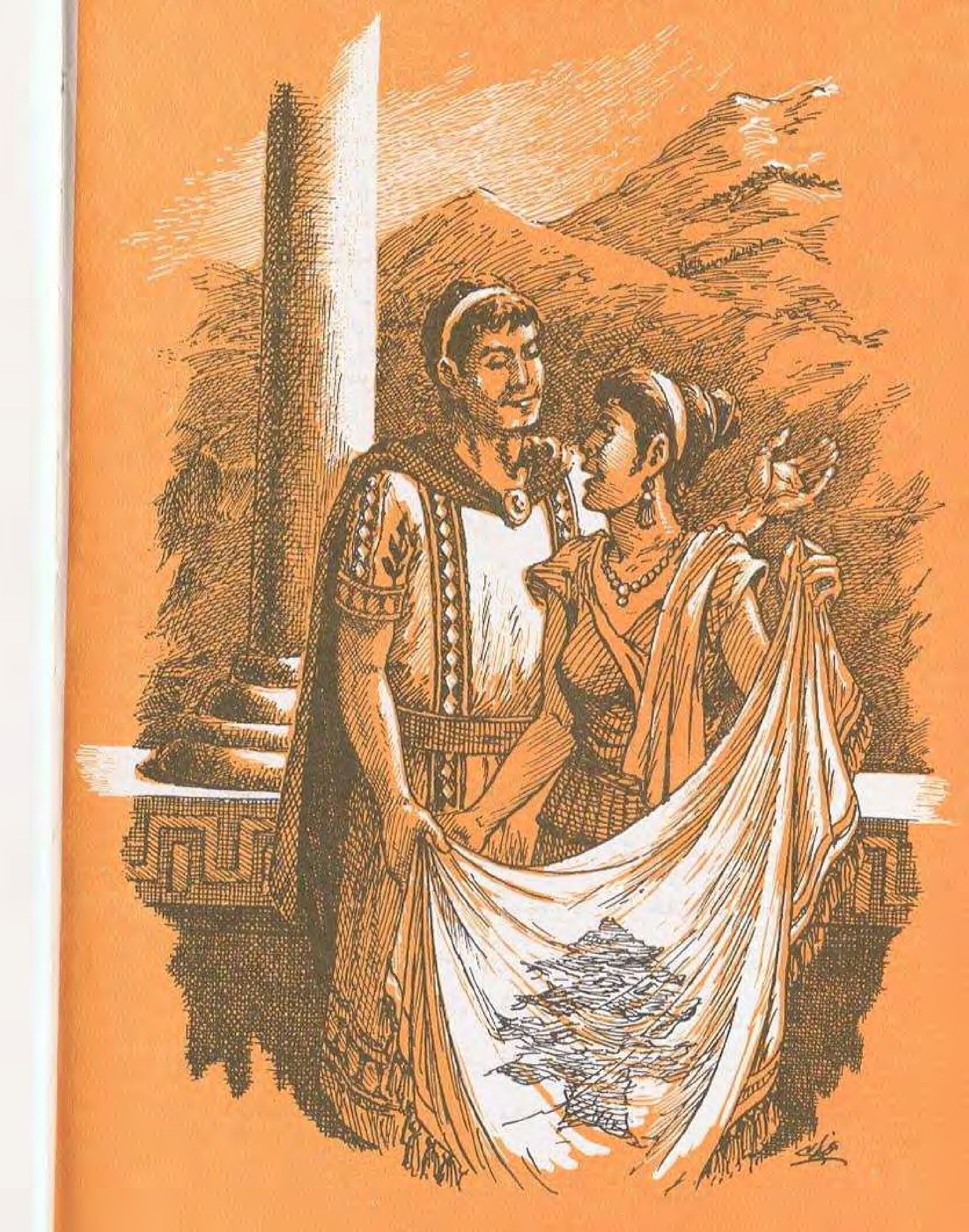
قالت :

– ولأجل هذه الأرض المقدّسة ساهجر أنا أيضاً بلادي .

وأدركت أنّها وجدَتْ في مـوطن الأرز ضالَّتها ، فعزمت على أن تبني فيه صَرح سعادتها .

أفرغت أمام البنّائين السُمْر الوجوه ، المفتولي السواعد ، كيساً من ذهب أبيها ليبنوا لهـا فوق الجبال قصراً شبيهاً بقصر «حيرام» تقيم فيه مع فتاها الفنّان .

ونثرت على السكّان حفَنات من مال أبيهـا ، وأسرت قلوبهم بحُسن خَلقها وخُلقها ، فأرادوها ملِكة عليهم .



قالت :

- لست طامعاً في الحكم والسيادة . لن يكون عندي جيش ولا حرّاس ، لأنّي أمقت الحرب وما يتّصل بها . لكنّي سأُضيف الغريب وأُعطي المحتاج ، وأعمل على إسعاد هذا البلد المضياف ، الصغير الحجم ، الكبير القلب . أمّا زوجي الفنّان فسيُلقي على أولادكم دروساً في فنّه ، ويمنحهمْ نفحاتٍ من روحه ، ويخلّد في لوحاته وأشعاره جمال بلادكم وشواطئكم .

وعاشتِ الفتاة في القصر مَلِكة غير متوّجة ، وانصرفت إلى زرع الخير والجمال حولها . ففاضت الغلال ، وازدهرتِ المواسم ، وامتلأت البلاد بالخيرات ، وأخذ الناس يصلّون في المعابد لربّة قصر الصنوبر ، ويعظّمونها كإحدى الإلهات التي عبدوها .

تلألأت في القصر ليلاً أنوارُ المشاعل تَهدي السُيّاح والمسافرين الذين توافدوا لزيارة أرض الحبّ والسلام . وغمر أرجاءه شذا العطور التي سطعت من أحراج «لبنان» . وارتفعت على السفوح والهضاب

قصورٌ جديدة تَنشُد في قرب الإلهة الجديدة خيراً وبركة .

أمّا زوجها فعكف على صنع تماثيل لآلهة الجبال والأحراج ، ووضْع تصاميم للهياكل والقصور التي جثمت كالقلاع الحصينة فوق الهضابِ المواجِهة للبحر ، تفتح صدورَها لشمس المغيب .

وقالت ربّة القصر لزوجها :

- ليس لدينا حرّاس أو حجّاب . وليس لهذا المنزل مايميّزه عن سواه من منازل . لنتّخذ له عَلَماً وشعاراً يُعرَف به ويَلفِت إليه الأنظار ، فيصبح ملجأ القصّاد وأصحاب الحاجات ، وموئل الضيوف والسائحين .

في اليوم التالي جاءها الفنّان بشِعار ذي لونين رَسَمَه على لوحة وقال :

- أمّا بياضُه فمن بياض لونك . واخضراره فمن خضرة ثوبك المفضّل الذي يَرمز إلى أصلك الملكيّ ...

فقالت :

ـ إنّي أرى فيه شيئاً آخر . إنّ بياضه هو بياض الثلوج التي تكلّل أعالي هذا الجبل المنيع صيفَ شتاء . أمّا خُضرته فخضرة الربيع ، بل خُضرة الأرز المقدّس الذي يعيش هنا منذ آلاف السنين ، ويَروي حكايات الملوك والنُسّاك الذين تفيّأوا ظلاله .

وجلسَت إلى نَولِها الفِضيّ تنسُج عليه الشِعار بخيوط بيضاء وخضراء صنعها أولئك القرويّون من الفيالج الحريريّة التي تزرعها ديدان القزّ على أغصان الشيح والوزّال . وحين أتمّت نسْجَها قالت للفتى :

ـ هذا الشِعار رمز حبّنا ، يَخلدُ بخلوده .

قال :

ـ لا ريب في خلود شعار نسجته يد إلهة .

رفرف العلم فوق القصر يتلألأ بياضُه في الشمس الساطعة ، وتشمخ فيه أرزة جبّارة تثير خضرتها

اللامعة حسد رفيقاتها من صنوبر وأرز .

★

وعلى حين غفلة من سكّان القصر هجم الأميرُ المحارب ، نسيبُ الأميرة ، ومعه جيشٌ من الجنود الفاتكين ، يُريد الاستيلاء على الأميرة وقصرها ، واتّخاذ ذلك الجبل المنيع معْقِلاً يمدّ منه سلطانه على باقي البلاد . فانبرى الفنّان وأعوانُه لمقاومته .

أصرّ الأميرُ المحارِب على اقتلاع العلم ليمزّقه أشلاءَ ، كأنّما عرف الهَدَف من وجوده . وأصرّ الفتى الفنّان على الدفاع عنه إذ رنّت في أذنه كلمة أميرته : « هذا رمز حبّنا يَخلدُ بخلوده » .

لكنّ الأمير طعنه طعنة قاضية ، واصطبغ العلم الأبيض بدماء الفتى الصريع . وظلّ الأمير محاصِراً القصر برجاله حتى أطلّت الأميرة ورأت فتاها مطروحاً فوق العلم المصبوغ بدمائه . فقال لها نسيبُها وهو يضحك ضِحكةً وحشيّة :

ـ أنتِ في حاجة إلى بطل محارب يدفع عنكِ

الغارات ، لا إلى شاعر عاجز عن الحرب غارق في بحر أوهامه .

قالت :

ـ ألموتُ أَحبُّ إليَّ من عشرة أمثالك . لقد هدمتَ هناءنا لتبني مجدك على أنقاضه ، ولكن لن يقوم عرش تبنيه على الظلم ، ولن تطيبَ لك لُقمة مخضوبة بالدماء .

وحملَتْ جثّة زوجها فلفّتها بالعَلم الذي افتداه بحياته . وقالت :

ـ نحن نموت ، ولكن يحيا حبّنا أبدَ الدهور . وكما نبتت دماء « أدونيس » زهوراً حمراء ، ستحيا دماؤنا في خضرة الربيع وثلوج الجبل وحُمرةِ الشفَق .

وطعنت نفسها بمُدْيَة كانت أخذتها من خزائن أبيها وأخفتها في ملابسها . ورقدت لتموت فوق العَلَم الذي لفَّ جثّة زوجها الشهيد . ودُفِنا في حفرة واحدة يَلُفُّها علم واحد .

أمّا الأمير المحارب فقد اغتاله واحد من رجاله ، وتبدَّد جيشه ، وانهار مُلكه قبل أن يبصر النور . وتهدّم القصر واندثرت معالمه بمرور السنين . لكنّ فنّاناً حديثاً اكتشف القبر الذي أصبح خالياً إلاّ من نسيج أبيض كالثلج ، في وسطه أرزة خضراء يحيط بها من الجانبين نطاق أحمر كالدم .

وكان هذا النسيج نواة العَلَم .



منذ أن يبست شجرة اللوز التي كانت تظلّل أكبر قسم من البستان الذي بجانب البيت ، فاضطُرّوا إلى قطعها وإلقائها بجانب الموقد الكبير لتصبح طعمة للنار ؛ من ذلك الحين ، تجدّدت هموم « أبي سعيد » ، فكان يحلو له أن يجلس على حجر السياج المحاذي لمكان الشجرة . يجلس هناك ساعاتٍ في حرّ الشمس الذي كانت تردُّه أغصان اللوزة فيما مضى . كان يتأمّل ما بقي في الأرض من جذعها الأسود الضخم ، ويجترُّ ذكريات الماضي المتشبّثة بذهنه تشبُّثَ جذع اللوزة بأرض البستان .

كانت هذه اللوزة عزيزة عليه رغم أنّها كانت السبب في مقتل زوجته المرحومة . لقد زرعها

جدّه ، أو لعلّها نبتت هناك بلا زرع من بزرة رماها
والده أو أحد أعمامه حين كانوا أطفالاً صغاراً .
وكبرت اللوزة ، وخيّمت فوق جنينة البيت ،
وصارت أعلى من السطح ، وقطفوا منها اللوز أكياساً
كلّ سنة . كانت زوجته « مريم » تصعد إلى أعلاها
كلّ سنة في مثل هذه الأيّام ، في آخر الصيف ،
فتجمع اللوز في أكياس صغيرة تربطها من أفواهها
وترميها إلى الأرض . والويل لمن يجرؤ من الأولاد
على فتح الأكياس ! لقد منعتهم من أكل اللوز
أخضرَ ويابساً ، لأنّها كانت تُعِدّه للبيع وتُبقي
قسماً قليلاً منه لحشو الدجاج أو السنبوسك حين يحلّ
العيد . وحدث منذ ثلاث سنوات أن طلعت إلى رأس
الشجرة كعادتها ، وفيما كانت تتطاول للوصول إلى
أعلى الغصن ، إذا بها تَهوي إلى الأرض جثّةً بلا
حَراك ، لأنّ الغصن الذي اعتمدت عليه كان نخِراً
بالياً . من ذلك الحين عرفوا أنّ الفناء قد دبّ في
اللوزة ، وأنّ أغصانها أصبحت نخِرة جوفاء وأخذت

تتلاشى يوماً بعد يوم ... كلّ شيء له آخرة . لعلّ
بيته أيضاً أخذ يدبّ فيه الفناء منذ أن ماتت زوجته
المرحومة وتبعتها اللوزة الجبّارة . لقد كان ذلك
كلّه نذير شؤم .

لم يحزنه كثيراً وفاةُ زوجته رغم أنّها كانت عماد
البيت ، تقوم وحدها ، من غير مساعدة أحد ،
بالأشغال المنزليّة كافّة . صحيح أنّ زواجه كان
موفّقاً ، وأنّ الحظّ حالفه منذ تزوّجها ، فزادت
مساحة أرضه من ثلاثة فدادين إلى خمسة ؛ لكنّه ،
رغم إعجابه بقوّة بنيتها ومتانة عضلاتها وقدرتها على
العمل ، لم يستطع أن ينسى أنّها كانت خادمة عنده
قبل أن يتزوّجها ، وأنّ هذا الزواج أورثه شعور
الذلّ والانكسار . وعبثاً حاول التغلّب على هذا
الشعور الخفيّ ، فكان يجتنب الظهور في المجتمعات ،
ويتظاهر أمام الناس باللامبالاة .

خدمته في تربية القزّ مدّة خمس سنوات متوالية .
ولشدّة إعجابه بمهارتها كان يحسم قسماً من أجرتها

كلَّ سنة على أمل أن تعود في السنة التالية لتستوفي حقَّها وتستأنف عملها. ولمّا صار لها في ذمّته عشر ليرات ذهبيّة وطالبته بها، نصحه والده المرحوم أن يتزوّجها فيوفّر على نفسه دفع المبلغ. وهكذا كان. لقد وفّر أجرتها طوال عمرها، ولم يستأجر من ذلك الحين مَن يعاونه في أشغال القزّ أو في أعمال البيت. كان شغلها يعادل شغل ثلاث نساء مجتمعات، بل شغل ثلاثة رجال: تمشُق ورق التوتة في طَرفة عين، تُطعِم ديدان الخُصّ في بضع دقائق، تحمل على رأسها أثقل الأحمال. وولدت له خمسة أولاد في خلال سبع سنوات، أربع بنات، ثم الصبيّ، الذي زال النحس بولادته. لهذا سمّاه «سعيداً». ورأى أن يكتفي بخمسة أولاد، فما كبرت البنات حتى سارع إلى تزويجهنّ الواحدة بعد الأخرى، فكان يعطي الواحدة منهنّ لأوّل طالب، من غير تردُّد أو مماطلة. أمّا «سعيد»، فرأى أن يؤخّر زواجه حتى سنّ الثلاثين، فقد تزوّج هو في هذه السنّ

وحالفه التوفيق، فلا بدّ أن يحالف ابنَه كذلك... لقد اشتروا في تلك السنة – سنة بلوغه الثلاثين – الفدّان الخامس من الأرض، وكانوا يتهيّأون لتزويجه حين حدثت الفاجعة وماتت «مريم».

لكنّه لم يلبث حتى احتفل بتزويج الصبيّ لأنّ البيت في حاجة إلى امرأة تقوم مقام الزوجة الراحلة. تسرّع في اختيار العروس كأنّما كان على عينيه غشاوة كثيفة فلم يبصر العواقب. كانت كنّته من أسرة ذات ماضٍ عريق، أصيبت بالفقر بعد غنى، وتعوّد أعضاؤها الترف والخمول. أراد بهذا الزواج أن يمحو عار زواجه «بمريم»، أن يصاهر الأكابر وأهل البيوت لعلّهم يلقون عليه ظلاً من عظَمتهم. ويا ليته رضي بوضعه ولم تساوره أفكار العظمة التي جرّت عليه المصائب!.. ما أشدّ الفرقَ بين «مريم» القرويّة الممتلئة نشاطاً، وهذه الفتاة التي لا تعرف كيف تحلّ سير حذائها، التي تقضي نهاراً كاملاً في صنع طبخة محشي، في حين كانت زوجته تنهض قبل شقّ الفجر فتكنس

وتغسل وتطبخ ، وأهلُ البيت نيـام ... وزاد الطين بلّة أنّـها ، منذ زواجها ، أي منـذ ثلاث سنوات ، أخذت تزداد نحولاً . وعبثاً كان ينتظر ، هو وابنه ، أن تحمل وتلد له حفيداً يفرح به ويرث فدادينه . لقـد قطع الأمل ، وأصبح كمن ينتظر من العوسج تيناً أو من الشوك عنباً . وكم أنفق من المال في معالجتها فلم ينفع فيها علاج ، ولم تزد إلاّ ذبولاً ووهناً .

كان غارقاً في أحلامه بجانب السياج حين سمـع صوتاً خشناً يناديه :

ـ نهارك سعيد يا « أبا سعيد » .

إنتفض والتفت ناحيةَ الصوت ، فإذا هناك الخادمة العجوز التي اضطُرّ أخـيراً إلى استئجارها لمعاونة كنّـته في أعمال البيت . رآها منهمكة في نشر الثياب على الحبل المنصوب في الجنينة ، وإذ انتهت من عملها مشت نحوه وبدأت تحدّثه من غير كلفة كأنّـها واحدة من أهل البيت :

ـ أراك مهموماً شارد الفكر . أنا أعرف سبب همّـك . هو حزنك على المرحومة .

ظلّ « أبو سعيد » ساكتاً ، في حين غمزت المرأة بعينيها وقالت :

ـ وهناك أمور أخرى تزعجك ... نعم ... همّ كبير جدّاً يحرمك النوم والراحـة ... ابنك وحيد وفي حاجة إلى وليّ عهد ...

تنهّـد « أبو سعيد » وقال :

ـ الله كريم .

وتابعت المرأة من غير رحمة :

ـ لا همّ أكبر من هذا الهمّ ... لمن تترك هذه الفدادين التي تملكها ؟ إنّ كنّـتك مثل العود اليابس ... يا حسرة !

في اليوم التالي أعادت المرأة العجوز على سمعه اقوالاً بهذا المعنى ، ردّدتها من غير اكتراث ، كأنّها تلميذ

يتلو على معلّمه أمثولة مستظهَرة ، لكنّها تركت في نفس « أبي سعيد » أثراً مثل الذي يتركه هبوب الريح فوق الجمر الذي يكاد يخبو .

فاجأته مرّة بسؤالها :

– لِمَ لا تتزوَّج فتُرزَق أولاداً ؟

فبُهت وقال :

– في هذه السنّ ؟

قالت :

– لا تزال لك هِمّة الشباب . جسمك مثل الحديد . أحسن بنت تتمنّى أن تكون لك زوجة ما دام الرزق باسمك .

– لم تبقَ لي رغبة في الزواج الآن .

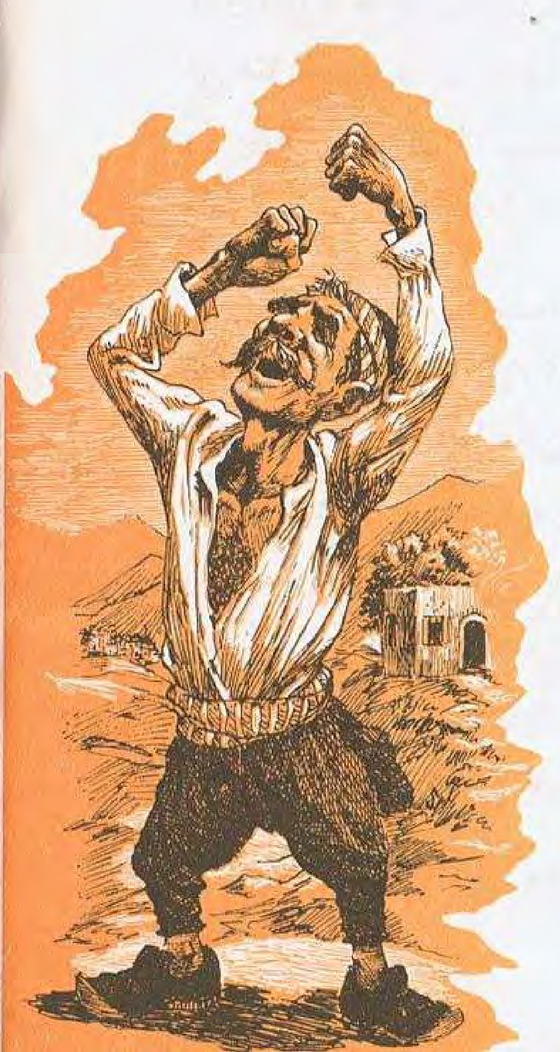
– أنت مخطىء . إن لم تتزوّج الآن ستندم فيما بعد . فالإنسان لا يعيش أبداً . إنّك في حاجة إلى

وريث . دع الأمر لي وأنا أدبّر لك بنت حلال تعجبك .

أخذت الفكرة التي ألقتها المرأة في رأس « أبي سعيد » تختمر وتنمو ، وتلازمه في منامه وفي قيامه . لِمَ لا يتزوّج ؟ لمن يتركُ خمسة فدادين شربت من عرق جبينه ما يعادل ثِقل ترابها ؟ كثيرون تزوّجوا في مثل سنّه ، أو كانوا يكبرونه بعشر سنوات ، ولم يلتفتوا لأقوال الناس . وبعد ... أيّ عار في ذلك ؟ أليس حرّاً يفعل ما يشاء ؟

بعد حيرة دامت بضعة شهور صحّ عزمه على الزواج ، لكنّه لم يرد أن يكون زواجه على يد العجوز لأنّه خاف أن تخدعه أو أن تطالبه بسمسرة . وخطرت له فكرة شدَّدت عزمه ، وهي أن يذهب إلى قرية زوجته « مريم » ... « مريم » التي لقي الخير على وجهها ، فيتزوّج من هناك بنتاً جبليّة مفتولة الساعدين يطفر الدم من وجهها ، ويعود بها إلى قريته ويُسكنها جانباً من داره الواسعة . ولن يخبر أحداً بما عزم عليه .

وحزم حقيبته ، ووضـــع في كيسه قسماً من الليرات الذهبيّة المكدَّسة في صندوقه ، وشدَّ لبّادته بلفَّة مخطّطة ، وأعــلم ابنه بأنّـه ذاهب ليستطلع أخبار أقارب زوجته المرحومة ، وربّما أقام عندهم أيّاماً .



وصل إلى القرية على ظهر حمار ، وأمامـــه خُرج ملآه بمقادير من الخضـــار والفاكهـــة الساحليّة كانت هديّته «لفارس» شقيق زوجته . ولبث في بيته مـــدّةً يبحث عن عروس . فعرض عليه بعض أهل القرية أرملة ذات أولاد فلم يرضَ بها . أخيراً عثر على فتـــاة تشبه زوجته «مريم» في ضخامة جسمها وطول قامتها . ورضي أهل الفتاة بأن يزوّجوها به مقابل ستّين ليرة ذهبيّة نقـدهم إيّاها دفعة واحدة . وعاد بالعروس إلى قريته بعد أن أنفق شهر العسل في بيت حَميه .

وما إن وصل إلى بيته حتى رأى الحزن مخيّماً ، وأصداء الندب والعويل تتردّد في أرجائه : رأى ابنه قـد صبغ طربوشه بالسواد ، وجلس يستقبل أفواج المعزّين ، فعرف أنّ كنّته قد ماتت إثر نوبة قلبيّـة مفاجئة ...

أُصيب « أبو سعيد » بذعر شديد وصدمته المفاجأة. فاخذ يلطم رأسه ويردّد : « يا للمصيبة ! يا للتعاسة ! أَمناحة وعرس في آنٍ معاً ؟ ما كان أغباني حـين تسرّعت وخـــانني الصبر ! ما كان أشدّ حمقي حين أصغيت إلى تلك العجوز المشؤومة ! لقــد كان ابني أولى منّي بهذا الزواج الذي كلّفني ستّين ذهبيّة... ستّين ذهبيّـة ... يا للخسارة ! »

من ذلك الحين لزم « أبو سعيد » غرفتـــه ، معرضاً عن الظهور أمام الناس . وأُصيب بذهول

أفقده شهوة الأكل والرغبة في الكلام . واستبدّ به الأرقُ فاشتدّ هزاله .

وفي صباح أحد الأيّام وجدوه ميتاً في فراشه . أمّا العروس فرَجعت إلى قريتها .

الأسئلة

١ - الدوطة

– كيف يظهر في هذه القصة الصراع بين القديم والجديد ؟ اي أشخاص القصة يمثلون العقلية القديمة ؟ أيهم يمثلون العقلية الجديدة ؟

– أتظن ان « سمية » أخطأت أم أصابت في موقفها من « بهيج » ؟ لماذا اختارت ان تعطي اختها مقداراً من المال بصفة دوطة ، مع انها رفضت الزواج بالشاب الطامع في دوطتها هي ؟ اشرح الفرق بين الحالتين .

– اي لفظة قاموسية بمعنى دوطة ؟

٢ - معركة عنجر

– اي شخصية في رأيك اشد بروزاً من سواها في القصة ؟ عزز رأيك بأمثلة .

– ماذا تعرف عن سياسة « فخر الدين الثاني » ومآثره ؟

– عرّف : « توسكانة » ، « الباب العالي » ، « الانكشارية » ، « السكانية » .

٣ - موكب البؤس

– عدّد انواع العِلَل التي اهتم الملك بمداواتها .

– اي العلل الخمس اسوأ في نظر الملك ؟ لماذا ؟

– ماذا قال صاحب الصوت الخفي ؟

– ما الفرق بين القصة والاسطورة ؟

٤ - في القطار

– كيف تبدو لك اخلاق « إيناس » بطلة القصة من خلال تصرفها وحديثها وحوارها الذاتي ؟

– هل خاتمة القصة مفرحة ام محزنة ؟ لماذا ؟

– لماذا انصرفت « ايناس » بكليتها الى مراقبة الجبال والاشجار بعد محادثة السيدة المبرنطة ؟

– اكتب حواراً ذاتياً يدور في ذهن فتى (او فتاة) أساء الى واحد من رفقائه وأمسى حائراً لا يدري : أيعترف ويستغفره ام لا ، ويفكر في ما يترتب على الاعتراف وعدمه .

٥ - صندوق « أم محفوظ »

– صندوق « ام محفوظ » رمز للتقاليد العفنة التي تجسدها « ام محفوظ » وابنها وصندوقها . اشرح هذا القول بفقرة او صفحة .

– ما رأيك في اولئك الذين ينفقون معظم وقتهم في لعب الورق وتدخين الاركيلة ؟

٦ - مغارة الميلاد

– ماذا يشكو اعضاء الاسرة ؟ ما علامات ذلك ؟

– صف اخلاق الوالد . واخلاق الفتاة بطلة القصة . اي عقدة تواجهها ؟ وكيف انحلت ؟

٧ - الهر البري

– اشرح القول التالي : « اخلاق الانسان تظهر على حقيقتها في معاملته لخدمه او من هم دونه » . لماذا ؟

– اشرح : كشط ، المقلاع ، تحرّش به .

– لماذا تكون الطفولة احياناً قاسية لا ترحم ؟

٨ - حكاية العَلَم

– ماذا توحي القصة عن دور « لبنان » او الوظيفة التي يبدو مهيأ لها ؟ اشرح ذلك .

– ما هي رموز العلم ؟

– ما هي أسطورة « اوروبا » ؟ و « قدموس » ؟ من هو « ابولو » ؟ « أفروديت » ؟

٩ - خمسة فدادين

– كيف تلقي الحوادث ضوءاً على شخصية « أبي سعيد » ؟

– صف ما قام في نفسه من صراع بين عوامل متضاربة : الحرص على أرضه ، شهوة النسل ، الحرص على المال ، الرغبة في مراعاة التقاليد او عدم مراعاتها ، الخوف من انتقاد الناس .

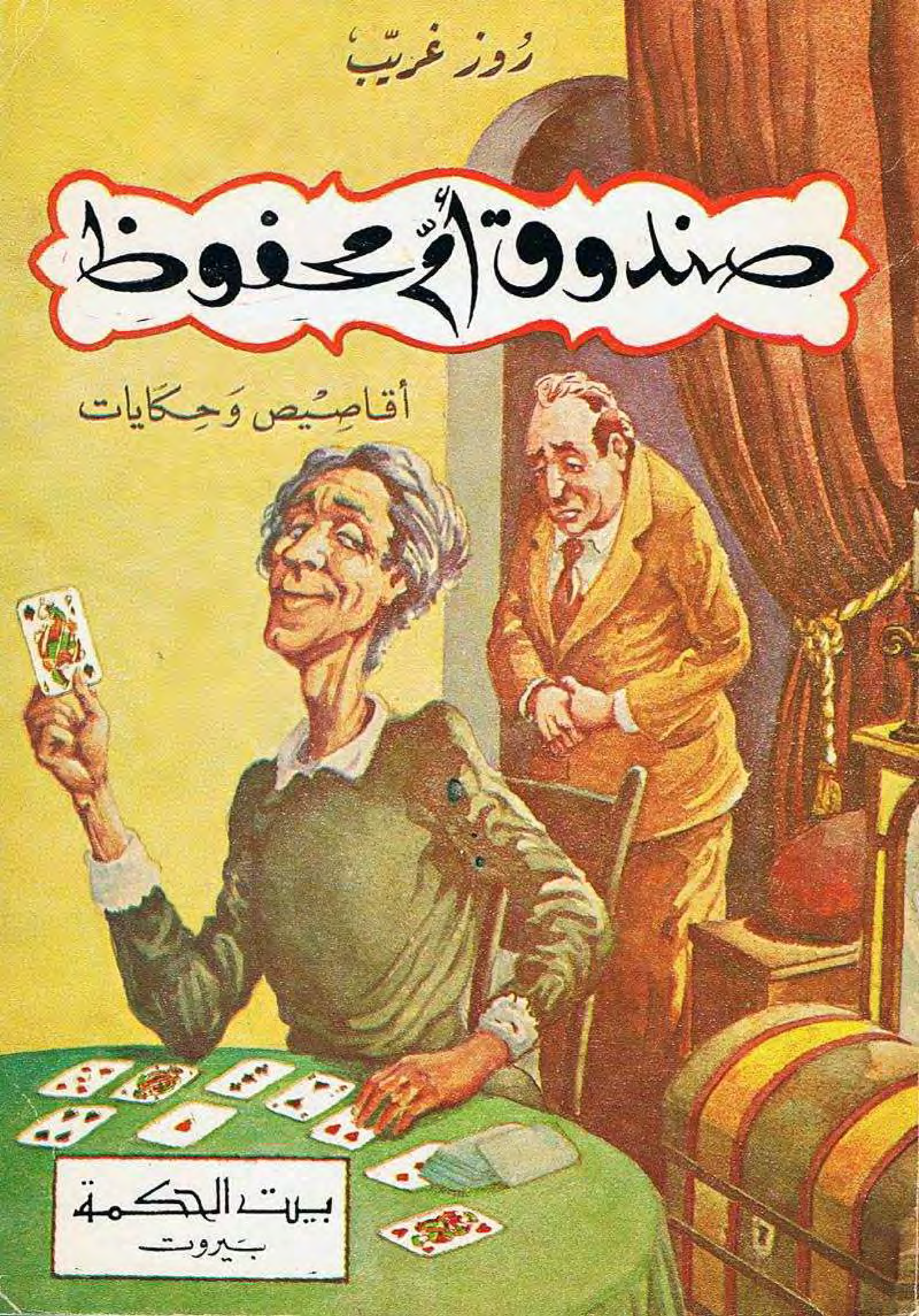
– حلل الأسباب التي أدت الى موته الفجائي .

– ماذا تتضمن القصة من صور اللون المحلي ؟

محتوى الكتاب

وكان الفراغ من طبع هذا الكتاب في
يوم ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٢
على مطابع دار غندور ش.م.م.
بيروت

١٩٩٢-١٠/٢٣٢


رُوز غريّب
صندوق أُمّ محفوظ
أقاصيص وحكايات
بيت الحكمة
بيروت